مجلة جامعة الملك سعود، م١٢، الآداب (١)، ص ص ١٨٧-٢٢٦ (١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م).

سوسيولوجيا الأخوة

سليمان بن عبدالله العقيل

أستاذ مساعد، قسم الدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة الملك سعود،
الرياض، المملكة العربية السعودية

(*قدم للنشر بتاريخ ٩/ ١٠/ ١٤١٧هـ؛ وقبل للنشر بتاريخ ١٩/ ٢/ ١٤١٨هـ*)

ملخص البحث. تعد الأخوة من أهم المفاهيم الإسلامية التي وجدت في المجتمع الإسلامي الأول، واستمرت. ومع أنّ أصل هذا المفهوم ديني فإن له جانبا اجتماعيا مهما في تنظيم المجتمع ودعم تماسكه واستمرار بقائه. فمعظم الأدبيات الإسلامية، وكذلك الدراسات المهتمة بالتراث، لم تنظر إليه إلا بالشكل الذي يدعو إلى ترسيخ جانبه الديني. لذلك فإن هذا البحث يعد محاولة لاستكشاف علاقة هذا المفهوم (الأخوّة) ببعض الجوانب الاجتماعية التي لم يتطرق إليها من قبل، مثل تنظيم المجتمع والتفاعل الاجتماعي والاغتراب والتغيّر الاجتماعي والسلوك الجمعي باعتبارها مفاهيم اجتماعية وتحليلها تحليلاً سوسيولوجيا. بالإضافة إلى تتبع أهمية هذا المفهوم (الأخوة) في ضبط المجتمع، وديناميكيته، وكذا دوره في ازدهار المجتمع أو تخلفه بالشكل والوجهة، التي ينظر إليه على أساسها، ومضامين تلك النظرة.

مقدمـــة

تحدّثت كتب الحديث والسيرة والتاريخ بأشكال مختلفة عن فترة زمنية، بعث فيها النّبي صلى اللّه عليه وسلم في مجتمع مكة، ثم هاجر إلى المدينة المنورة، وأنشأ فيها مجتمعا

اعتبر مجتمعا مثاليا من حيث الفكرة والهدف والتنظيم. وحين ينظر الباحث من بُعد الى تلك الحقبة التاريخية، يجد أن هناك مادة غزيرة جديرة بالنظر فيها، وإعادة دراستها خصوصا في هذه الفترة التي يمرّ بها المجتمع الإسلامي؛ لتعاقب الثقافات والاحتكاك الثقافي، والتواصل العلمي الفكري بين المجتمعات البشرية والمجتمع الإسلامي. وفي الجانب الآخر الزخم الهائل من الموروث الإسلامي المعتمد أساسا على جانب ديني، وكذا تأرجح الفكر الإسلامي المعاصر بين التراث الإسلامي، ومستجدات العصر الحديث. وكما أثبت التاريخ، فإن الغالب يفرض ثقافته وتنظيمه الاجتماعي، على المجتمع المغلوب، قال بذلك ابن خلدون.[١] وقال أبو حيان التوحيدي أيضا،[٢] عن عصره: «اكتسب الناس عادات، وعقلية جديدة لم تكن موجودة لديهم من قبل،» وكذا هي سنة اللّـه في المجتمع. ومن ذلك يحدث نوع من التجديد لبعض المفاهيم الإسلامية، مع ما استجدّ من مفاهيم وخلافه، وتكون الغلبة للقوة، والتجديد، وكذا يُفصل بينها وبين روحها، ونقصد بذلك النظم الاجتماعية الإسلامية، والاعتقاد.

ولقد مرّ الفكر الإسلامي بأزمات وتجارب عديدة، تولّدت منها اتجاهات وتيارات فكرية وتطبيقات فقهية مختلفة ونظرات للمجتمع وحركته من منطلق تلك الاتجاهات، وذلك نظرا لتطوّر الحياة الاجتماعية وانفتاح المجتمع الإسلامي على المجتمعات الأخرى. وتنطلق نظرة الإسلام إلى المجتمعات بجميع حركتها من أنها ذات أصل واحد، وأن تلك المجتمعات والشعوب أصبحت أجزاء مختلفة في بعض المظاهر الحياتية، ولكنها تجتمع جميعا في نظرة واحدة، هي أنها مجتمع بشري، يتشابه في الفعل. وقد نجد أن تلك الفكرة موجودة في تراث بعض المجتمعات الأخرى، ولكن المفهوم الإسلامي لها يختلف في الاعتقاد وفي الممارسة. إذ إنه لا يفرّق بين الناس على أساس اللون أو العرق أو خلافه من الناحية الدينية أو الاجتماعية. ذلك أن الأمر جاء من الخالق بهذا التعليم لكي تتم عمارة

---

(١) عبدالرحمن بن خلدون، *مقدمة ابن خلدون*، تحقيق عبدالواحد وافي، ط١ (القاهرة: دار الشعب، ١٩٦٠م)، ٤٨٠.

(٢) أبو حيان علي بن محمد التوحيدي، *الإمتاع والمؤانسة* (بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٥٣م)، ٣: ٢٣.

الأرض وتحقيق ماأمر به الإسلام، لذا فإن معظم المفاهيم الإسلامية ذات جانب اجتماعي. من تلك المفاهيم (الأخوة) ودورها في تأسيس المجتمع، وكذا صيانته على فترات، حينما تكون هناك حاجة لذلك، وتكون مستمرة باستمرار المجتمع أو الجماعة وبقائهما.

أهميـة البحـث

تزخر كتب السنة والسيرة والتراث الإسلامي بالكثير من المفاهيم والممارسات التي كانت في مرحلة الإعداد لإنشاء المجتمع الإسلامي الأول. من هذه المفاهيم والممارسات مفهوم (الإخاء) وممارسته، ذلك المفهوم الذي ظهر في أول قيام المجتمع. ولا يخلو هذا المفهوم من التساؤلات التي تدور حوله: هل هو تنظيم اجتماعي؟ أم تنظيم للمجتمع؟ أم نوع من العصبية؟ أم تكتل اجتماعي، اقتصادي نفسي؟ أم هو مرحلة أولى لإعداد مجتمع جديد يكون متكاملاً ويحوي كل هذه المفاهيم السابقة من الناحيتين العملية والنظرية، لذا فهو تعليم رباني أكّده القرآن الكريم، كمفهوم جاء ليبقى، ويستمر، مع بقاء واستمرار، القـرآن الكـريـم.

ثـم إن هنـاك من ينظـر إلى نظـام المؤاخاة، الذي جاء مـع بداية التنظيـم الإسلامي للمجتمع في المدينة المنورة باعتباره أحد الأسس لتنظيم الجماعة والمجتمع في بدايات التكوين، حيث كان المسلمون يعيشون بين فئات مختلفة في الاعتقاد منبعا، وفي الحياة الاجتماعية سلوكا، وكذا فإن المسلمين أنفسهم كانوا يعيشون مرحلة جديدة من حياتهم المرتبطة بالنّبي الكريم صلى اللّـه عليه وسلم، حيث التعليمات والأوامر والنواهي تتعاقب يأخذ بعضها بعجز بعض، وكذلك هاجر عدد كبير من المسلمين إلى المدينة، وهي بيئة تختلف عن بيئتهم الأصلية (مكة)، ولذلك فلابد من إيجاد نظام ضروري لاستمرار وجود المجتمع، فكانت تلك (المؤاخاة) وتلتها (الأخوة)، لأن هذا النظام يعتبر المحرك غير المادي المستمر في صياغة العلاقات وإعادة صياغتها وتشكيلها بين أفراد المجتمع. وتذهب النظرة إلى أبعد من ذلك، باعتبارها كتلة عاطفية وشحنة شعورية تدفع إلى الحاجة للاتحاد، والاندماج في كيان واحد. فالمجتمعات تبحث ثم تتشبث بمثل هذه المفاهيم في ربطها الشعوري النفسي، وكذلك لابد من وجود مثل هذه التنظيمات غير البيروقراطية بالمفهوم الحديث لها، والتي تدعم وجودهم، وتؤكّد على استمراريتهم.

لذا فإن أهمية البحث تكمن في استجلاء بعض الجوانب الحديثة لهذا المفهوم (الأخوة) ومحاولة مناقشته من وجهة نظر علم الاجتماع، التي قد تكون إضافة لفهم تراث المجتمع الإسلامي، بل ومدخلاً لمناقشة الكثير من المفاهيم في التراث الإسلامي من الوجهة الاجتماعية البحتة لفهم حركتها وآلياتها الاجتماعية.

هدف البحث

يزعم بعض مفكري الغرب أن الكثير من الأفكار - وبخاصة ماكان يدور في عصر التنوير- هي من إنشائهم، وقد يكون الأصل فيها للحضارة العربية الإسلامية التي ترجمت وانتشرت في الغرب، ومن ثم اتصفت بصفاتهم وأصبح قصب السبق لهم، لأنهم أخرجوها بهذا الثوب الجديد. ويذكر على سبيل المثال لاالحصر فكر ابن خلدون، الذي يعتبر الأساس في معظم الأفكار التي جاءت فيما بعد مثل فكر ميكيافيللي وماركس وروسو ودوركايم وغيرهم. فإذا كان بعض من مفكري الغرب قال بأفكار اجتماعية معينة، فلايعني ذلك ابتداعها، أو أن أصلها يرجع إلى الفكر الديني الغربي، بقدر ما يكون أصلها مستمدا من الفكر الإسلامي. فالإسلام أكثر الديانات التي أكّدت أهمية المجتمع والجماعة، وديناميا‌تها وحاولت تنظيم العلاقات القائمة بين الفرد والمجتمع والمجتمعات والجماعات والمجتمعات الأخرى، والكثير من نصوص القرآن والسنة النبوية وتراث السلف تدل على ذلك. لذلك فإن محاولة استخدام بعض الأفكار الغربية ومطابقتها، لاتعني بالضرورة استقلاب تلك النظريات والأفكار حتى تتناسب مع النصوص الإسلامية، أو محاولة التأكّد من النصوص الإسلامية بعرضها على النظريات الغربية، ولكن القصد محاولة المطابقة لإثبات أن الأصل هو في النصوص الدينية الإسلامية، والدعوة إلى محاولة تفسيرها تفسيرا اجتماعيا يناسب الواقع المتغير، ومحاولة التنظير لهذا الواقع من خلال تلك النصوص وتفسيراتها المعاصرة، والقاعدة في ذلك أن الدين الإسلامي صالح لكل زمان ومكان. ولأن مفهوم الأخوّة وممارستها ينتج عنه أفعال اجتماعية، فإن علم الاجتماع يوصف بأنه علم يكرّس جهوده للوصول إلى فهم تفسيري للفعل الاجتماعي social action وأسبابه ومصاحباته والنتائج المترتبة على ذلك. ويعرّف الفعل الاجتماعي بوصفه نتاجا للمعنى

الذاتي الذي يخلّفه الأفراد على سلوكهم، سواء كان هذا المعنى واضحا أوكامنا. ويعد الفعل اجتماعيا بالقدر الذي يضع فيه الفاعل سلوك الآخرين في حسبانه توجها وتصرفا.[٣] فالفكرة الإسلامية حول (الأخوّة) وغيرها من الأفكار تنقسم إلى قسمين: الأول: مايُفسِّرَ هذا المفهوم من الناحية الدينية حيث ارتباطها بالعقيدة الإسلامية مباشرة وأدبيات ذلك الارتباط من ناحية الأجر والعقاب والرضى وغير ذلك. أما القسم الثاني: فهو مايختص بالمجتمع، إذ أن هذا المفهوم (الأخوة) له علاقة مباشرة بحركة المجتمع من التفرّق إلى الوحدة ومن الانحلال إلى التماسك، وعلاقة هذا المفهوم بتلك الحركة، هي قدرته على تفعيل العناصر الداخلية التي تزيد من القدرة والفاعلية وتحقيق هدف ذلك المفهوم المطلوب منه. لذلك فإن البحث يهدف إلى استعراض أهمية (الأخوة) وتتبعها بجانبيها الديني والاجتماعي. مع التأكيد على الجانب الاجتماعي لاستكشاف وتحليل علاقة (الأخوة) ببعض المفاهيم الاجتماعية الأخرى مثل النظام الاجتماعي وتنظيم المجتمع والتفاعل الاجتماعي، والاغتراب، والتغير الاجتماعي، والسلوك الجمعي، وتحليل تلك العلاقة اجتماعيا، ومحاولة ربط (الأخوّة) بالمفاهيم الاخرى ربطا اجتماعيا يُظهرُ أهمية الأخوة في المجتمع الإسلامي في ضبط حركة المجتمع وفعل الأفراد والسلوك الناتجَ عن تلك العلاقة وتوجيه ذلك كله.

المؤاخـاة والأخـوة

حينما قدم النبي صلى اللّـه عليه وسلم الى المدينة المنورة (يثرب) مع مَنْ هاجر من مكة، كان المجتمع جديدًا عليهم وكان معظمهم لا يملك المال فأصبحوا فئة - في نظَر المجتمع المهاجر إليه - عالة على غيرهم عديمي القوة، والمكانة، مسلوبي الإرادة. ولأن القوة تكمن في المكانة الاجتماعية والاقتصادية، فقد أقدم النبي صلى اللّـه عليه وسلم على خطوات عملية من شأنها رفع مستوى الفئة المسلمة (نواة المجتمع الجديد) من جميع النواحي وإحداث بعض النظم التي تكفل لهم بقاءهم وحدةً واحدة حتى ينهض المجتمع

(٣) عبدالباسط عبدالمعطي، *اتجاهات نظرية في علم الاجتماع* (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨١م)، سلسلة عالم المعرفة، ع٤٤، ٥٥.

الواعد، ويحقق الآمال والطموحات التي صرح بها لبعض صحابته، سواء كانت في الحياة الدنيا أو في الآخرة، ولكنها وعود دافعة نحو التلاؤم والوحدة وإنشاء مجتمع يقوم على تلك القيم، بالإضافة إلى أنها جزء من الدين. وتذكر كتب السير والحديث والتاريخ أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قد وعد آل ياسر بالجنة، [٤] وكذا وعد سراقة بن مالك بأن يعطيه مفاتيح كسرى، وغير ذلك من الوعود لأشخاص معينين أو لعامة أفراد الجماعة أو المجتمع الإسلامي. [٥]

ومن الخطوات العملية التي اتخذها النبي صلى الله عليه وسلّم بناؤه المسجد، واجتماع المسلمين فيه ليكوّن الجماعة الأولى في المجتمع الجديد، ليعمل على إحداث نوع من إعادة التنشئة الاجتماعية لكل من المهاجرين والأنصار. ثم كانت الخطوة التي تلت ذلك المؤاخاة، فقد أراد النبي صلى اللّه عليه وسلم أن يوجد تشريعا يعالج للمهاجرين أوضاعهم الاقتصادية وذلك بتعاونهم مع أهل المدينة (الأنصار) لإيجاد مصادر رزق لهم ومحاولة دمجهم في المجتمع وتكيفهم معه ولكي يشعرهم أيضا بأنهم ليسوا عالة على إخوانهم الأنصار، فكان أن شرّع نظام المؤاخاة. [٦] وذكر ابن حجر [٧] أن من أغراض المؤاخاة أن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة، فآخى النبي صلى الله عليه وسلّم بين الأعلى والأدني ليرتفق الأدنى بالأعلى، ويستعين الأعلى بالأدنى، وبهذا تظهر مؤاخاته صلى اللّه عليه وسلم لعلي بن أبي طالب، لأنه كان يقوم به من عهد الصبا من قبل البعثة واستمر إلى ما بعدهما، وكذا مؤاخاة حمزة بن عبدالمطلب وزيد بن حارثة

---

(٤) الحاكم النيسابوري، *المستدرك على الصحيحين* (حيدر آباد: دائرة المعارف العثماني، ١٣٦٢هـ)، ٣: ٣٨٨؛ وابن هشام، *السيرة النبوية*، تحقيق مصطفى السقا (القاهرة: مكتبة عيسى البابي الحلبي ١٣٧٥هـ)، ١: ٣٩٥؛ وعلى بن أبي بكر الهيثمي، *مجمع الزوائد* (القاهرة: مكتبة القدسي، ١٣٥٢هـ)، ٩: ٢٩٣.

(٥) أحمد بن علي بن محمد الكناني بن حجر، *فتح الباري شرح صحيح البخاري* (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٧٨م)، ١٥: ١٠٤، ٣٩٠.

(٦) مهدي رزق الله أحمد، *السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية: دراسة تحليلية* (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٩٩٢م)، ٣٠٢.

(٧) ابن حجر، *فتح الباري*، ١٥: ١٢٩.

لأن زيدًا مولاهم فقد ثبّت أخوتهما ، وهما من المهاجرين . وقد آخى النبي صلى اللّه عليه وسلم لما قدم المدينة بين المهاجرين أنفسهم ، كما آخى بين المهاجرين والأنصار . آخى بينهم على الحق والعدل والمساواة كما جعلهم يتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام . وقيل إن إعلان المؤاخاة كان في المسجد ، وقيل كانت المؤاخاة في دار أنس بن مالك . (٨)

في البدء قال الرسول صلى اللّه عليه وسلم للأنصار : «إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا عليكم ، فقالوا : أموالنا بيننا قطائع ، فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم ، أو غير ذلك؟ قالوا وما ذاك يا رسول اللّه قال : هم لا يعرفون العمل ، فتكلفونهم وتقسمونهم الثمر قالوا نعم . » (٩)

وفي رواية أخرى ، قال الأنصار للنبي صلى اللّه عليه وسلم إن شئت فخذ منا منازلنا ، قال لهم خيرًا ، وابتنى لأصحابه في أرض وهبتها لهم الأنصار ليست ملكا لأحد . (١٠)

وفي روية ثالثة ، قالت الأنصار للنبي صلى اللّه عليه وسلم : اقسم بيننا وبينهم النخل قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : لا . قال يكفونكم المؤونة ويشركونكم في الثمر ، قالوا : سمعنا وأطعنا . (١١)

ومن التطبيقات العملية لهذه المؤاخاة ، قصة عبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ، فقد قال سعد بن الربيع لعبدالرحمن بن عوف ، إني أكثر الأنصار مالا ، فأقسم لك نصف مالي ، وانظر أي زوجتيّ هويت نزلت لك عنها ، فإذا حلّت تزوجتها ، فقال عبدالرحمن ابن عوف ، لا حاجة لي في ذلك . ثم سأله هل من سوق فيه تجارة؟ فدلّ على سوق بني قينقاع . والقصة مذكورة بالكامل في *فتح الباري* . (١٢)

---

(٨) ابن حجر ، *فتح الباري* ، ١٥ : ١٣٠ .

(٩) أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير ، *البداية والنهاية* ، تحقيق محمد عبدالعزيز النجار (القاهرة : مطبعة الفجالة الجديدة ، ١٩٧٠م) ، ٣ : ٥٥ .

(١٠) أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري ، *أنساب الأشراف* ، تحقيق محمد حميدالله (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٥م) ، ١ : ٢٧٠ .

(١١) ابن كثير ، *البداية* ، ٣ : ٢٥٠ ؛ وابن حجر ، *الفتح* ، ١٥ : ١٢٣ ، ٣٩٢ .

(١٢) ابن حجر ، *الفتح* ، ٦ : ١٣٣ ـ ١٣٤ ؛ ٩ : ٢٠٤ .

وتزخر كتب السيرة والتاريخ بالقصص التي حدثت بين المهاجرين والأنصار من مواقف جليلة، كالتنازل عن الذات، والمآثر، ما يشجع على دراسة ذلك المجتمع بديناميكياته وتفاعلاته.

إذن، فالنبي صلى اللّـه عليه وسلم جمع - في تلك العملية - بين المهاجرين والأنصار، وبين المهاجرين أنفسهم وعيّن أن فلانا أخو فلان، فردًا بفرد حتى أصبح ربطا بين الناحيتين الشعورية النفسية والاجتماعية، وقد تكون أقتصادية في بعض الأحيان، في آن واحد حيث أن المجتمع في تلك الفترة كانت تطغى عليه أخوة الدّم (الاجتماعية ـ الوراثية) أكثر من أي عقد اتفاق أو معاهدة أو ارتباط آخر مهما كان، فالرابطة العضوية هي الأكثر والأقوى. فكان ذلك الرباط بين مجموعة محدودة من الأفراد لكي يمتزجوا في المجتمع.[١٣] لذا فإن النبي صلى اللّـه عليه وسلم آخى بين الصحابة حينما نزلوا المدينة، ليُذْهبَ عنهم وحشة الغربة ويستأنسوا من مفارقة الأهل والعشيرة ويشد بعضهم أزر بعضَ، فَلما عزّ الإسلام واجتمع الشمل، وذهبت الوحشة وانخرطوا في الحياة، وعرفوا وسائل اكتساب الرزق، حدث تعديل في ذلك التنظيم مواكبا للتغير الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي حدث في ذلك المجتمع الإسلامي، وبالتالي أُبطل من نظام المؤاخاة التوارث. وانتقل مفهوم (المؤاخاة) إلى مفهوم (أخوّة) المؤمنين، وأنزلَ اللّـه تعالى في ذلك الآيات الكريمة: ﴿ **وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾؛[١٤] ﴿ **وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا** ﴾.[١٥]

ثم جُعلَ المؤمنون كلّهم إخوة فقال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾[١٦] وذلك لانقطاع المنفعة الاقتصادية المباشرة بين المتآخين (التوارث)، ولكن بقي التواد والتراحم

---

(١٣) أحمد، *السيرة النبوية*، ٢٥٢.

(١٤) سورة الأنفال، آية ٧٥.

(١٥) سورة الأحزاب، آية ٦.

(١٦) سورة الحجرات، آية ١٠.

وغير ذلك من المنافع الأخرى سواء كانت مادية مباشرة، أو غير مادية تشكل في مجموعها النظام العام للأخوة التي جاءت كنظام اجتماعي جديد ليبقى، ويستمر على أنقاض المؤاخاة بين فردين.

وكانت المؤاخاة في المدينة مسبوقة بمثلها في مكّة بين المهاجرين أنفسهم . . . ذكر ذلك البخاري في *الفتح*.[١٧] إذ كانت المؤاخاة مرّتين، مرّة بين المهاجرين خاصة، ومرّةً بين المهاجرين والأنصار.[١٨] لقد كان التآخي على الحق والعدل والمساواة وعلى أن يتوارثوا بينهم بعد الممات، بحيث يكون أثر الأخوة الإسلامية في ذلك أقوى من أثر القرابة، ثم ربط النبي صلى الله عليه وسلم بين أفراد الصحابة برباط عام من الأخوة والموالاة. وقد قامت هذه الأخوّة على أُسس مادية أيضا. وكان حكم التوارث فيما بينهم من بعض الظواهر المادية، وظلّت عقود هذا الإخاء مقدمة على حقوق القرابة حتى موقعة بدر الكبرى حيث نزل قوله تعالى: ﴿**وأُولُوا الأَرْحَام** ....﴾ الآية.[١٩] وكذا ذكر ابن عباس أن ما ألغي من نظام المؤاخاة هو الإرث فقط؛ أما النصر والرفادة والنصيحة فباقية، ويمكن أن يوصى ببعض الميراث بين المتآخين.

وبعد تحول هذ المفهوم، أصبح مفهوما جديدا بالإمكان التعامل معه في أي مجتمع وفي أي زمان. لذا فإن عقد الأخوّة يعتبر بمثابة تنظيم جديد وتأصيل لقيم ومعايير جديدة في مجتمع المدينة(المجتمع الجديد) الذي يقوم في أصله على الأخوة والتآلف، حيث صغرت إلى جانبه الأحقاد التاريخية والثأرات القبلية، والأطماع الشخصية والرايات العنصرية.[٢٠]

---

(١٧) ابن حجر، *الفتح*، ٧: ١٩١.

(١٨) ابن عبد البر، *الدرر في المغازي والسير*، تحقيق شوقي ضيف(القاهرة: دار الفكر، ١٩٦٦م)، ١٠٠.

(١٩) محمد سعيد رمضان البوطي، *فقه السيرة: دراسات منهجية علمية لسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام وماتنطوي عليه من عظات ومبادئ وأحكام* (دمشق: دار الفكر، ١٩٧٧م)، ١٥٦؛ سورة الأنفال، الآية: ٧٥.

(٢٠) سيد قطب، *في ظلال القرآن* (بيروت: دار الشروق، ١٩٧٨م)، ١: ٤٤٣.

وعلى هذا، فإن الأخوّة تقسيم تشريعي لنسبة الأخوة بين المؤمنين، ولها آثار شرعية وحقوق اجتماعية، فالأخوة منها أخوة طبيعية لها أثر في الشرائع والقوانين، وهي اشتراك شخصين في أب أو أم أو فيهما، وفي أخوة اعتبارية لها آثار اعتبارية، وهي في الإسلام أخوة نسبية لها آثار في النكاح دون الإرث، وأخوة دينية لها آثار اجتماعية ولا أثر لها في النكاح والإرث. وينظر إليها في غالب الأمر من الناحية المصلحية وصيانة المجتمع بشكل مستمر، لا كتنظيم يخدم البناء الاجتماعي و يؤثر فيه. وكما أوضح قطب، [٢١] أنه يترتب على الأخوة أن تكون عناصر الحب والسلام والتعاون والوحدة هي الأصل في الجماعة المسلمة، وأن يكون الخلاف أو القتال هو الاستثناء الذي يجب أن يُردُ إلى الأصل فور وقوعه، وأن يستباح في سبيل تقريره، فالمؤمنون يقاتلون البغاة من إخوانهم ليردوهم إلى الصف، وليزيلوا هذا الخروج على الأصل والقاعدة.

ونظر الغزالي [٢٢] إلى الأخوة على أنها رابطة بين شخصين كعقد النكاح بين الزوجين، ولكنها رابطة معنوية لها تطبيقات في واقع الحياة العملية. فكما يقتضي النكاح حقوقا يجب الوفاء بها قياما بحق النكاح، فكذا عقد الأخوة، فلأخيك عليك حق في المال والنفس وفي اللسان والقلب بالعفو والدعاء وبالإخلاص والوفاء والتخفيف وترك التكليف. لذا فإنه يفهم ممّن تناول مفهوم الأخوة أنها حق لكل فرد على أخيه، وفيها منافع كثيرة، منها ما يتعلق بمعالجة الظروف الحياتية التي تواجه كلاً من الإخوة، أو الوقوف لصد أي نائبة من نوائب الدهر عنه، وفي الجانب المعنوي والنفسي، النصح والإرشاد والتأييد له وهوما يساعد الأخ في مواجهة المشكلات المتعلقة به من هذا الجانب.

وحينما تتعدى الأخوة معناها الظاهر، من التقارب في الجانب الطبيعي (الفيزيقي) وكذلك الجانب العاطفي بكل أشكاله ومعانيه بين فردين لتكامل الحياة الاجتماعية، لتدخل حيزا آخر هو الحب في اللّه بين الفرد الواحد وأبناء المجتمع الكلي أو بين أفراد المجتمع جميعا، فإن الكثير من الموازين العقلية التي تحكمها المصلحة (الرأسمالية) في أغلب الأحيان

---

(٢١) قطب، *الظلال*، ٤: ٣٣٤٣.

(٢٢) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، *إحياء علوم الدين*، تحقيق عبدالقادر الأرناؤط (عمان: دار الفكر، ١٩٨٦م)، ٢: ١٨٨.

تتلاشى ويظهر تقويم آخر. وهذا يقتضي استقلاب كل المعاني والصفات الجميلة من العدل والصدق والإخلاص وخلافه، لتصبح حقيقة واقعة بين الأفراد وتصبح قيما اجتماعية يتفاعل معها أفراد المجتمع وتؤثر فيهم وتبقى جزءا من البناء الاجتماعي.

علاقة الأخـوة بالنظام الاجتماعي

تعتبر (الأخوة) مركزا شعوريا وفريقا متجانسا يشعر فيه العضو بانتمائه الحقيقي إلى وحدة فعّالة، ويحتاج هذا الشعور بالوحدة، وما يرافقه من ضرورة العمل المشترك من الأعضاء، إلى وعي وتنظيم شكلي ظاهري. لذلك فإن الشعور بالوحدة يسهل مهمة اشتراكهم معا في الأهداف المشتركة. وحينما لا تواجه الجماعة عقبات خارجية، في المجتمع الضد، فإن هذه المشاركة تهدف إلى خدمة الأغراض التي اجتمعوا عليها وتآخوا حولها. ففي المجتمعات الإسلامية تكون الأهداف حول تصحيح المفاهيم وتطبيق النظام الإسلامي العام على المجتمع، ومحاولة الزيادة في الفهم للدين وتوظيفه في الحياة الاجتماعية بشكل أكثر فاعلية. ولكن حينما تكون هناك عقبات في المجتمع الخارجي، ليس في التنظيم نفسه، كمحاولة منع هذا التنظيم من ممارسة نشاطاته، فإن المشاركة بين الأفراد والمنتمين تؤكد ذاتها داخل الجماعة، وقد تنصرف إلى محاولة تجاوز تلك العقبات الخارجية التي وضعها المجتمع. ويتأكد ذلك في المجتمعات التي لم تكن في أصلها إسلامية، حيث تنصرف إلى العمل لتذليل العقبات التي تواجهها وتحسين الصورة. وكذا كان في المجتمع الصحابي الأول في مكة والمدينة، فإن الوظيفة لذلك النظام كانت تنصب على أن يقوم انتماء قوي بين الأعضاء ومن ثم بدأ هذا التنظيم بفعالية، في محاولة تذليل العقبات الخارجية في المجتمع والتي تعيق عمله واستمراريته.[٢٣]

إذن فالجماعة (الأخوة) ليست دائرة كاملة للحياة الاجتماعية، بل نتيجة التفاعل المتكامل في شخصية المجتمع المؤسسي بوظائفه المختلفة، فالتعاون المنظم هو همها الوحيد، وتطوره لا يعتمد مباشرةً على الشعور بالجماعة فقط بين الأفراد، بل بالترابط الوثيق

---

(٢٣) جي اتش كول، *النظرية الاجتماعية*، ترجمة عبدالوهاب الكيّالي (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٨٨م)، ٣٥.

والعلاقات والتفاعل المنسجمة بين جميع الهيئات والمؤسسات الوظيفية ضمن المجتمع الكلي أيضا. فالنظام الاجتماعي يشير إلى أنماط بنائية أو عملية، وهناك من يحصر النظام الاجتماعي في انتظامات التفاعل التي تحظى بالقبول والموافقة من جانب المجتمع أو التي يفترض أن تكون وظيفية، وهناك من يرى أن مفهوم النظام الاجتماعي العام غالبا ما يختلط بالنواحي الأخلاقية والمثالية الخيالية (اليوتوبية). (٢٤)

إن نظام (الأخوة) يؤدي وظائف عديدة، فهو لا يحقق هدفا واحدا بعينه، ولا ليشبع حاجة واحدة في وقت معين. (٢٥) وقد كان نظام (الأخوة)، - ومازال - يحقق حاجات عدة، ويؤدي مجموعة من الوظائف تعرّض لها المجتمع المحلي والعام في فترة المجتمع الصحابي وما بعده، واستمر هذا النظام يؤدي الوظائف نفسها بشكل مختلف باختلاف الحاجات والمجتمعات أو التجمعات. ورغم أن نظام (الأخوة) قد يؤدي أكثر من وظيفة اجتماعية، أو يحقق أكثر من هدف، ويشبع أكثر من حاجة، فإنه قد تكون له وظيفة أساسية أو محورية، وُجد هذا النظام من أجلها، وكذا لتحقق المجموعة الأخرى المتعلقة به من الحاجات.

إن نظام (الأخوة) يشبع الكثير من الحاجات الاقتصادية، والسياسية، والدينية، والنفسية، وذلك واضح بجلاء في القرآن الكريم وكذلك في مجموعة الأحاديث النبوية الشريفة، وسيرة السلف ومن خلفهم. وهذه الوظائف تؤدى بجانب الوظيفة الأساسية أو المحورية وهي الوظيفة الاجتماعية. ونظر ميرتون Merton إلى النظام الاجتماعي ووظائفه، حينما ميّز بين الوظيفة الظاهرة manifest function والوظيفة الكامنة latent function للنظام. إذ إن الوظيفة الظاهرة للنظام الاجتماعي (الأخوة) هي تلك المدركة أو الظاهرة لأفراد المجتمع والتي يحقق من خلالها المصالح المتعددة. ولكن الوظيفة الكامنة أو غير الظاهرة هي تلك التي لا يدركها أعضاء المجتمع، وهي مجموعة من الأدوار التي يؤديها ذلك النظام وتحتاج إلى تحليل وبحث حتى تظهر وتتحدد هذه الوظيفة الكامنة، وهي تختلف

---

(٢٤) محمد علي محمد، *مصطلحات العلوم الاجتماعية لطلاب قسم الاجتماع* (القاهرة: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥م)، ٤١٤.

(٢٥) Cecilia Ridgeway, *The Dynamics of Small Groups* (New York: St. Martin's Press, 1983), 17.

بالضرورة باختلاف المجتمعات والتجمعات، وتكون في الأقليات مختلفة عنها في المجتمعات الإسلامية الصرفة، وكذا تكون في المجتمعات المشتركة أو التي بدأت تأخذ شكل الحياة المختلف عما في المجتمع الإسلامي. يضاف إلى ذلك أن هذا النظام (الأخوة) تعليم رباني جاء به الوحي لينظم حياة الناس، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين. ولكن المسلمين هم المعنيون بهذا الأمر، لذا فهو يعتمد في أصله على الوحي وفي تطبيقاته على العقل وعلى الفعل الاجتماعي الذي يبحث عن المصلحة الاجتماعية والنفسية والمادية والسياسية وغيرها.

وإذا كانت هذه وظائف نظام (الأخوة) فإن سلوك أفراد المجتمع واتجاهاتهم تتشكل في صورة النظم الاجتماعية القائمة فيه، فحينما يكون هناك التزام بهذا النظام تؤدّى وظائفه كاملةً، ولكن تظهر المشكلات الاجتماعية في المجتمع - خصوصا المجتمعات الإسلامية - حينما يكون هناك اختلال في أداء نظام (الأخوة) لوظائفه. واختلال أداء النظام (الأخوّة) يكمن في علاقته بالنظم الأخرى في المجتمع، وطريقتها في تأدية وظيفتها سلبا أو إيجابا، فنظام (الأخوة) كمفهوم مازال موجودا، ولكن اختلّت الوظيفة الظاهرة والتطبيقات العملية له وأصبح هناك نوع من الشك في مؤدّاها. ولأنه تعليم ديني مرتبط بجذوره، فإنه لا يعمل بشكل فاعل سوى في البيئة التي تكون مهيأة له. بالإضافة إلى أن الدور الذي يقوم به قد يتلاشى في الجو الاجتماعي الذي قد يكون مشحونا بالشك في معظم الاتجاهات.

علاقة الأخوّة بتنظيم المجتمع

يشير التنظيم الاجتماعي إلى أنساق علاقات الالتزام التي تسود بين الجماعات، وداخلها في مجتمع معين، وينظر فيرث Firth إلى التنظيم الاجتماعي على أنه يعبر عن الترتيبات الفعلية في المجتمع، أي عملية ترتيب الأفعال، وانتظام العلاقات من أجل أهداف اجتماعية.

وينظر إليه آخرون من دارسي علم الاجتماع على أنه يشير إلى بناء، وعملية تكوين في الوقت نفسه، فهو بناء يقصد به أي نمط مستقر للعلاقات المتبادلة بين الأجزاء المكونة، بحيث يشكل كيانا له خصائص لا توجد في الأجزاء مستقلة، وهي عملية تشير إلى

طريقة تكوين هذه الوحدات الكلية والتنظيمات الاجتماعية على هذا النحو تؤدي وظائفها بصورة أكثر كفاءة من الأشخاص الذين لا يربطهم هذا التنظيم. (٢٦)

وينظر روبرت ماكيفر Maciver إلى النظام بأنه الصور والأشكال الثابتة التي يدخل الناس بمقتضاها في علاقات اجتماعية. (٢٧) هذه التعاريف السابقة تقودنا إلى القول بأن النظم الاجتماعية هي الأساليب المقننة والمتفق عليها اجتماعيا التي تستهدف إشباع حاجات أبناء المجتمع، وهذه النظم تتفاعل وتتساند لتجعل نظام (الأخوة) نسقا معياريا يتضمن السلوك المتوقع، والهدف، ونماذج العلاقات بالإضافة إلى الغايات القيمة والضوابط والجزاءات.

والتنظيم يمتاز بأن بقاءه لا يشكل هدفا أوليا وحيدا، وإنما يشكل هدفا مهما ودالا في نظر أعضاء المجتمع. إن التنظيم الاجتماعي ينطبق في آن واحد على ظواهر بنيوية ثقافية، وإنه يتناول ترتيبا إجماليا، وتفاعل عدد من العناصر بقدر ما يؤلف هذا الترتيب وهذا التفاعل وحدة يمكن تعريفها ولها سمات خاصة. (٢٨)

إن التنظيم الاجتماعي المعتمد على مفهوم (الأخوة) الذي جاء به الإسلام، طبق في الفترات الأولى من قيام المجتمع الإسلامي الأول، وبقي هذا النظام قائما بشكل تنظيم، يمارس في فترة دون أخرى وفي مجتمع دون آخر، حسبما تقتضيه الحاجة أو الظروف المحيطة بالمجتمع. لذلك فإن هذا التنظيم (الأخوة) يعتبر مجموعة من التنظيمات منفتحة بعضها على بعض، بمعنى أن سير عمله لا يتوقف فقط على شروط داخلية، مثل البنية الترابطية بين جزيئات هذا التنظيم، وإنما يتوقف أيضا على تبادل التنظيم (الأخوة) وعلاقاته بمحيطه الخارجي، فانتساب الأعضاء إليه، وتوفير الحاجات وتنفيذها وغير ذلك، يتأثر

---

(٢٦) محمد، *مصطلحات العلوم الاجتماعية*، ٤٢١.

(٢٧) أحمد ابوزيد، *البناء الاجتماعي: مدخل لدراسة المجتمع* (القاهرة: الدار القومية، ١٩٦٦م)، ٣٧.

(٢٨) جان كزنوف، *دائم علم الاجتماع*، ترجمة عادل العوا (دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة، ١٩٨٩م)، ٢٧، ٢٨.

بها التنظيم سلبا وإيجابا. ويوضح لورو [٢٩] أن التنظيم يدل على بعض المسالك الاجتماعية وبعض السياقات الاجتماعية، كعملية تنظيم هذه النشاطات المتعددة والوسائل الكفيلة بتحقيق الأهداف الجماعية، مثل الإنتاج والتثقيف والتوزيع، وإدماج مختلف الأفراد ضمن وحدة متجانسة.

لذا فإننا نستطيع القول بأن التنظيم الاجتماعي عبارة عن سلوك اجتماعي موجه نحو أهداف محددة، في وقت محدد؛ أما نظام (الأخوة) فيشمل التنظيم الاجتماعي في أبسط معانيه بالإضافة إلى استمراريته وشموله وقوة بنائه الداخلي، حيث إنه يرتكز على جذر عقائدي ليظلّ تنظيما اجتماعيا قائما وبخصوصية معينة إلى نهاية المجتمع، و يصلح تطبيقه في كل المجتمعات إذا روعيت بعض الخصوصيات لهذه المجتمعات.

خصائص النظم الاجتماعية

ذكر السمالوطي [٣٠] مجموعة من خصائص النظم الاجتماعية وذلك في معرض حديثه عن المجتمع الاسلامي ونظمه، وهي:

١ - لكل نظام من النظم الاجتماعية وظيفة معينة أو مجموعة من الوظائف التي يؤديها داخل المجتمع لأن هذا النظام نوع من السلوك المقصود أو الهادف.

٢- النظام الاجتماعي يرتبط بالمعايير أو القواعد الضابطة للسلوك في المجتمع.

٣ - يرتبط الالتزام بهذه القواعد بفكرة الجزاءات الاجتماعية.

٤ - يتطلب النظام الاجتماعي فترة طويلة من الزمن حتى يتحقق، لأنه سلوك اجتماعي، ولأن النظام والسلوك يستمران فترة طويلة، أطول من أعمار الأفراد أنفسهم.

٥ - تتضمن كل من النظم الاجتماعية مجموعة معقدة ومتشابكة من النماذج السلوكية لأنها تتسم بدرجة عالية من التعقيد.

٦- هناك ترابط وظيفي بين النظم الاجتماعية داخل المجتمع، لأنها ليست مستقلة، ولكنها تمثل أجزاء مترابطة ومتساندة ومتداخلة ومتكاملة.

---

(٢٩) جورج لاباساد رينيه لورو، *مقدمات في علم الاجتماع*، ترجمة هادي ربيع (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٨٦م)، ٦٥، ٦٦.

(٣٠) نبيل السمالوطي، *بناء المجتمع الإسلامي ونظمه* (بيروت: دار الشروق، ١٩٨١م)، ٨٢.

بعض الأحاديث المنظمة للمجتمع المعتمدة على مفهوم الأخوة

تشتمل السنة النبوية على مجموعة كبيرة من الأحاديث النبوية الشريفة التي مدارها ومحورها الأخوة ، والتي تكوّن في مجموعها توجيه الحياة الاجتماعية، بل وتحدد شكل الفعل الاجتماعي للأشخاص المنتمين. وسوف نستعرض بعضا من هذه الأحاديث حتى تعطي صورة واضحة حول المفهوم الذي هو محور الحديث (الأخوة).

١ - عن ابن عمر رضي اللّه عنهما أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: «لاتناجشوا، ولاتباغضوا، ولاتدابروا، ولايبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم، لا يخذله، ولايحقره، التقوى ههنا - وأشار الى صدره - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه.»(٣١)

ويقتضي هذا الحديث بأن لا ينقص المسلم من حال المسلم أو من حقه بغصب أو غيره، وأن يحقق العدالة بين أبناء المجتمع الواحد بين البائع والمشتري في السوق، أو في أي جانب من جوانب الحياة الاجتماعية على وجه العموم. وفيه أيضا نوع من بناء النظام الذي يكفل حريه الأفراد، فلا يسلمه إلى عدوه. وهو أيضا بناء للتكامل، سواء كان هذا العدو خارجا أو نفسه، بمعنى أن يمنعه من ارتكاب ما هو خاطئ في حقه أو حق المجتمع. ويدخل في ذلك نظام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك لدفع المجتمع إلى سلوك صحيح يدفع إلى النماء والتقدم، ثم لا يقف عند المنع أو الدفع، ولكن يتعدّاه إلى مرحلة البناء (من كان في حاجة أخيه)، تحقيقا لتكامل نظام الأخوة وصيانتها، بالبذل والعطاء والتضحية، سواء كانت هذه التضحية جماعية أو فردية، وسواء أكانت من الناحية المالية (المادية) أو من الناحية النفسية والاجتماعية، حتى يحافظ المجتمع على تماسكه وتوازنه. وتحقيقا لذلك جاء (كان اللّه في حاجته). ثم التأكيد على تفريج الكرب بأن اللّه أعدّ لذلك جزاء عظيما يوم القيامة. ولكي يتحقق نظام الأخوة في الحياة الاجتماعية فلابد من

---

(٣١) محمد ناصر الدين الألباني، *صحيح الجامع الصغير وزياداته*، *الفتح الكبير* (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٨٨م)، ٢: ١٢١.

وجود الجزاء والثواب الذي أعده الله في الآخرة و يطمح إليه الناس، ويبذلون ما في طاقتهم لتحقيق ذلك النظام الاجتماعي والمحافظة عليه في الدنيا، وبذلك يتحقق لهم مكسبان، الأول صيغة النظام الاجتماعي وتحقيق فوائد دنيوية اجتماعية وسياسية واقتصادية وأمنية وغيرها، والثاني الجزاء والثواب في الآخرة الذي يطمح إليه كل مسلم، بل إن كل فعل يقوم به المسلم في حياته يعدّه مكسبا يدّخره للآخرة.

٢ - عن أنس رضي اللّه عنه قال قالرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما، فقال رجل يا رسول اللّه أنصره إذا كان مظلوما، أرأيت إن كان ظالما كيف أنصره؟ قال تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره. »(٣٢)

وهذا نوع آخر من التنظيم الاجتماعي سُن ليصبح التزاما بين أفراد المجتمع الواحد يكفل عدم الظلم، أو ردّه سواء كان بين الأشخاص أو بين الشخص ونفسه ويكون جزءا من التنشئة الاجتماعية أو إعادة التنشئة الاجتماعية re-socialization . قال البيهقي (إذا كان ظالما) إن الظالم مظلوم في نفسه فيدخل فيه ردع المرء عن ظلمه لنفسه حسا ومعنى .(٣٣)

ولأن حياة المجتمع العربي في أصلها تقوم على علاقة الدمّ والثأر، فإن هذا الحديث جاء ليسنّ تنظيما جديدا قد يكون فيه نوع من مخالفة السائد وذلك بمنع الظلم، ويكون نظاما بعد ذلك للمجتمع الإسلامي، لأن فيه دعوة إلى عدم الاعتداء وهضم حقوق الآخرين ودعوة إلى تحكيم العقل. وهي في مجملها دعوة إلى توازن المجتمع وتناسقه ليكوّن وحدة كاملة. والأخوة هنا تعني منع الظلم، سواء كان ذلك بالإرشاد أو بالقوة ليتحقق ذلك التوازن والتكامل. ثم يستمر التكامل في بناء التنظيم حتى ليصبح أمرا واقعا، سواء في ذلك المجتمع الذي أوجد فيه هذا التنظيم، أو فيما بعد لكل المجتمعات، الإسلامية وغيرها، بوصفه تنظيما اجتماعيا للمجتمع.

٣ - عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال. قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم :

---

(٣٢) أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيريّ النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي (الرياض: رئاسة البحوث العلمية والإفتاء، ١٩٨٠م)، ٤: ١٩٩٨ .

(٣٣) أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي، شرح صحيح مسلم (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٤م)، ٢: ٢٤ .

«من عاد مريضا أو زار أخا له في اللّـه ناداه مناديان: طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلا» رواه الترمذي. (٣٤)

ولا يزال التدعيم للتنظيم (الأخوة) مستمرا من قبل النبي صلى اللّـه عليه وسلم مشروعا من قبل اللّـه تعالى، وكذا تدعيم هذا التشريع بمجموعة من الجزاءات في الدنيا والآخرة، ويلاحظ أن معظم الجزاءات تكون في الآخرة وكذلك العقاب. ولأن المنال بعيد عن الناس فهم ينظرون إليه، ويجاهدون أنفسهم ويصابرون حتى يفوزوا بالحصول على هذه الجزاءات، لذا فإنهم يحبون أن يتفانوا في تطبيق هذا التنظيم. والجانب الآخر تقعيد هذه الأنظمة حتى تصبح جزءا من الحياة الاجتماعية، ويصبح التفاعل معها وتأييدها جزءا لا يستغني عنه أي فرد في المجتمع، فهم يحققون الأخوّة بينهم لإصلاح دنياهم وجعلها نظاما مستمرا ومثالاً بين المجتمعات الأخرى. هذا التفاني لا يعني عدم حصول بعض التجاوزات أو عدم تطبيق المبدأ في بعض الحالات، فالصحابة بشر يمكن أن يخطئوا ويصيبوا ولكنهم بكل المعايير خير من طبّقوا هذا النظام وأقاموه في مجتمعهم.

وتضيق الدائرة حتى تصبح العلاقات أكثر قوة بين الأفراد أو بين المجتمعات المحلّية، وتصبح المحافظة على التنظيم (الأخوة) شأن كل واحد من أفراد المجتمع كما أنها شأن المجتمع بمؤسساته الاجتماعية الأخرى (الأسرة، القبيلة، المسجد...)، والمحدد لهذه العلاقة هو الإيمان باللّـه تعالى.

٤- عن أبي سعيد الخدري رضي اللّـه عنه عن النبي صلى اللّـه عليه وسلم قال: «لا تصاحب إلاّ مؤمنا، ولا يأكل طعامك إلاّ تقي» رواه الترمذي وأبو داوود. (٣٥)

ثم يدخل هذا التنظيم في باب أوسع من (الأخوة) وهو الحب في اللّـه والبغض في اللّـه، فإن الحب في اللّـه قضية ليست تنظيما ماديا ظاهرا فقط، ولكنها تتعلق بالناحية النفسية للأشخاص وبالتالي تكون روحا للتنظيم (الأخوة). فالحب في اللّـه قضية تتعلق بنفسية الإنسان، وربه مباشرة، فالرقابة عليها مباشرة من اللّـه تبارك وتعالى، بينما نجد أن بعض المدعمات الأخرى لهذا التنظيم أو محتواه قد يظهر فيها الجانبان، بمعنى أنها قد

(٣٤) الألباني، *صحيح الجامع*، ١٢٠٨.

(٣٥) الألباني، *صحيح الجامع*، ١٢٢٦.

تكون هياكل مادية، لا تحمل المعنى الحقيقي ولو أنها تطبق بعض العمليات مثل التعاون والنصرة، وغيرهما من ديناميات الجماعات، وخصوصا تلك الجماعات التي تقوم من أجل هدف مادي بحت، فهذه الهياكل التنظيمية، التي هي أساسا محتوى الأخوة، قد تخلو من المعنى وهي تطبق، لذلك فلا بد من وجود تعليم ديني يدعم هذه الهياكل لتصبح ذات معنى وروح.

٥ - عن أنس بن مالك رضي اللّـه عنه عن النبي صلى اللّـه عليه وسلم قال: «لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» متفق عليه. (٣٦) قال العلماء في هذا الحديث: إن من الفقه كون المؤمن مع المؤمن كالنفس الواحدة فينبغي أن يحب لها ما يحب لنفسه من حيث إنها نفس واحدة كما في الحديث «المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لما يصيب الإيمان، كما يألم الرأس لمايصيب الجسد». (٣٧) وجاء الحديث خضّا على التواضع ومحاسن الأخلاق وترغيبا في محبة المسلمين بعضهم لبعض وائتلافهم، ولأن ذلك سوف يؤدي إلى التعاضد والتناصر، وبه ينتظم شمل الإيمان وتتأيد شرائعه. (٣٨) وقال البيضاوي: إنما المؤمنون إخوة، أي من حيث إنهم المنسوبون إلى أصل الإيمان الموجب للحياة الأبدية، ورتب على هذه الأخوة المقتضية لمزيد الشفقة التناصر والتعاون. (٣٩)

هذه بعض الوظائف الظاهرة (للأخوة)، وقد يكون هناك الكثير الذي لم يُتحدث عنه، وهي تهدف إلى إرساء وبناء مجتمع جديد قد يختلف عما سبقه.

---

(٣٦) الألباني، *صحيح الجامع*، ١٢٥٨.

(٣٧) محمد ناصر الدين الألباني، *سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيئ من فقهها وفوائدها* (الرياض: مكتبة المعارف، ١٩٨٧م)، ٣: ١٩٣.

(٣٨) محمد بن علان الشافعي الأشعري المكي الصديقي، *دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين* (بيروت: دار الفكر، ١٩٨٤م)، ٢: ٢٣.

(٣٩) النووي، *شرح صحيح مسلم*، ٣: ١٦.

علاقة الأخوة بالتفاعل الاجتماعي

يعتبر النظام الاجتماعي شبكة من العلاقات بين الناس، وبين الجماعات. هذا النظام يجمع بين مجموعة من الفاعلين - الأفراد داخل المجتمع - في علاقات واحدة. وينظر إلى هؤلاء الفاعلين في داخل هذا النظام، من خلال تفاعلهم مع أفعال الآخرين. لذا فإن الموضوعات الفيزيقية والرمزية والثقافية لا تتصل بالنظام الاجتماعي، بل إنها تمثل عوامل خارجية تحدد التفاعل بين الفاعلين، وتضع عليه شروطا معينة، [٤٠] وقد يكون الفاعلون والمتفاعلون داخل النظام الاجتماعي أفرادا وقد يكونون جماعات أو تجمعات كالقرية والمنطقة الجغرافية، أو الطبقات الاجتماعية أو مجتمعا بأسره. لذا فإن نموذج التفاعل الذي قدمه بارسونز لا يرتبط بمستوى العلاقات الشخصية بين الأفراد فقط بل يمكن أن يتعداه إلى مستويات مختلفة من الواقع الاجتماعي، في كل المجتمعات وفي أماكن مختلفة. ونحاول استجلاء علاقة الأخوّة بالتفاعل الاجتماعي من خلال مجموعة من الأفعال التي قام بها النبي صلى الله عليه وسلم، أو من خلال الأقوال أو الآيات أو حتى ممارسات الصحابة في مجتمعهم الإسلامي الأول. إذ إن التفاعل كان قائما بين الصحابة في المدينة المنورة، وبعد ذلك في المجتمعات وعبر الأزمان على مبدأ الأخوة، تلك الرابطة أو ذلك النظام الذي يتفاعل المسلمون من خلاله في جميع شئون حياتهم وعلى مستويات مختلفة، تبدأ من المستوى الشخصي(الفردي) مثل عيادة المريض وقول المعروف ومساعدة الآخر أو الحسد، والهجران وغير ذلك، إلى مستويات أعلى مثل حدوث خلاف أو قتال بين فئتين (جماعتين) من المسلمين، وكذا الرابطة الأخوية بين المجتمعات الأخرى. فالأخوة نموذج مثالي للتفاعل الاجتماعي بين أبناء البشر خصوصا إذا كانوا مسلمين بخلاف أخوة الدم حيث يكون مداها محدودا.

ونموذج بارسونز للتفاعل الاجتماعي له ثلاثة عناصر، [٤١] هي:

الأول: يجب أن توجد توقعات متبادلة بين الأفراد. فالفرد يتوقع من الفرد الآخر

---

(٤٠) جي روشيه، *علم الاجتماع الأمريكي: دراسة لأعمال تالكوت بارسونز*، ترجمة محمد الجوهري وأحمد زايد (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨١م)، ٧٠.

(٤١) روشيه، *علم الاجتماع الأمريكي*، ٧٦.

أو الأفراد الآخرين أن يتصرفوا بطريقة معينة، واضعا في الاعتبار ظروفهم المشتركة والعلاقة التي تربط بينهم. وحتى يتم ذلك التفاعل بين الصحابة، فإن مجموعة من التوجيهات والأحاديث وكذا الممارسات التي أمر بها النبي صلى اللّه عليه وسلم، تحدد تلك التوقعات المتبادلة، فالأفراد يعملون وفق هذه التوجيهات « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذ له . . . » إلخ. فوفقا لهذا الحديث مثلاً تكون التوقعات، لأن الفاعل والمتفاعل يعودان إلى قضية أساسية في تعاملهما وهي الأخوة فالذي يتوقعه المتفاعل أنه لا يُظلم والذي يفعله الفاعل أنه لا يظلم وكذا شؤون الحياة الأخرى.

ثانيا : يجب أن توجد مجموعة من المعايير والقيم تحكم سلوك الفاعلين، أو من المفروض أن تحكمه. والمحقق أن التوقعات المتبادلة توجد بسبب وجود القيم والمعايير، لذا فإن الفاعل يعرف ما هي المعايير التي تحكم سلوك المتفاعل، وفي الوقت نفسه يعرف المتفاعل المعايير التي تحكم الفاعل. لذا فإن كلاً من الفاعل والمتفاعل يستطيع من خلال القواعد - قواعد السلوك المعروفة - أن يتنبأ بما يجب أن يفعله الآخرون في موقف معين. (٤٢) ومن خلال القواعد والمعايير التي تسنّ بناءً على تعليم ديني، فالفاعل والمتفاعل عنصران تقوم عليهما الحياة الاجتماعية، وهما يعرفان أن هذا التفاعل حدث لأنهما أخوان، فكل منهما يلتزم بهذا المعيار. مثال ذلك عدم الغش، عدم الخداع، عدم الكذب وهكذا. تلك القواعد تجعل المجتمع متماسكا يدعو إلى الأمن والسلام. ويحاول الفاعل والمتفاعل أن يرضي ربه بأن يكون ملتزما بما قرره الدين بأن ينتهج سلوكا صحيحا ليتوقع سلوكا صحيحا من الجهة المقابلة.

ثالثا : إن الجزاءات تمثل عنصرا ثالثا في عملية التفاعل ويوجد هذا العنصر في معظم صور الحياة الاجتماعية، سواء كانت (إسلامية) قائمة على تعليم ديني أو في المجتمعات الأخرى غير المسلمة، فكل مجتمع له جزاءات وعقوبات. فالفاعل والمتفاعل يثيب ويعاقب بعضهم بعضا، طبقا لتوافق أي منهم مع التوقعات المتبادلة أو عدم توافقه، ويكون بذلك نسقا محكما وأكثر ضبطا يتفاعل الإخوة من خلاله. لذا فالتفاعل ماهو إلا ضرب من تبادل للمعلومات عن التوقعات المتبادلة، ومظاهر الإشباع والإحباط.

---

(٤٢) روشيه، *علم الاجتماع الأمريكي*، ٧٧.

ولأن الأخوّة نظام يشمل تنظيم المجتمع على مستويات مختلفة في واقع الحياة الاجتماعية، بالإضافة إلى كونه تعليما دينيا يمارسه الأفراد ليتعبدوا الله به، فإن الأخوة أيضا تحوي مجموعة من الجزاءات، وهي موزّعة على الدنيا (حياة المجتمع)، حيث الأمن والاستقرار والصدق والدافعية نحو العمل والإنتاج وخلافه. والآخرة حيث الجزاء من الله تعالى بماوعد به من طبّق هذا النظام. لذا نستنتج أن هذا النظام يشمل الحياة المتوازنة في الدنيا والجنة في الآخرة.

علاقة الأخوّة بالاغتـراب

كان مجتمع النبي صلى اللّـه عليه وسلم وصحابته، في مكة والفترة الأولى من الهجرة، يعيش في مرحلة انتقالية، يعدمعها التنظير لمجتمع جديد، وإقامته على أسس معينة. ولأنه يعيش في مرحلة انتقالية فلا بد من أن يكون قد تعر ض إلى نوع من التنافر بين ثقافة ذلك المجتمع الجديد وبين المجتمع الذي كان يعيش فيه. لذا فإن المجتمع الصحابي قبل و بعد المؤاخاة لفترة بسيطة أصبح يعيش في مرحلة انتقالية تسمى بالمجتمع المزدوج dual society ، والذي يتصف بأنه يعيش حسب نمطين مختلفين من الحياة الاجتماعية، فالمجتمع الأول، مجتمع يثرب، مجتمع تقليدي ذو ثقافة معينة ومناشط اقتصادية محددة وعلاقات مع المجتمعات الأخرى، وهوما يجعل التغيير صعبا. وفي تلك المرحلة نشط فيها المنافقون واليهود في بث الفرقة وإشاعة الاضطرابات وتأليب أهل يثرب على المهاجرين، واتضح ذلك في أقوال عبدالله بن سلول وعبدالله بن سبأ. والمجتمع الثاني، مجتمع الرسول والصحابة، المجتمع الجديد إذ يعتبر مجتمعا عصريا في وقته. المجتمع العصري يملك خزينا غنيا بالتجارب والخبرات الاجتماعية الخاصة بالحياة التقليدية، وفي الوقت نفسه يتبنى الأفكار والابتكارات الجديدة أو الطارئة والحرجة. هذه الحالات وتكرارها وتنوعها تدفع بالمجتمع المزدوج من الاتجاه التقليدي لكي يكون مجتمعا حديثا. [٤٣] في تلك المرحلة الانتقالية، أحدث تفاعُلُ المجتمع التقليدي مع الأفكار الحديثة نوعا من

(٤٣) معن خليل عمر، *نحو نظرية عربية في علم الاجتماع*، ط٢ (عمّان: دار مجدلاوي، ١٩٩٢م)، ٨٢.

الاغتراب لأبناء المجتمع التقليدي أو الحديث، إذ إن الأفكار الجديدة جميلة و منطقية بينما ثقافة المجتمع التقليدية بماتملك من مخزون تقف دون ذلك. وفي المقابل يحمل أبناء المجتمع الحديث تلك المبادئ والأفكار، بالإضافة إلى وضع المهاجرين، وتصطدم بالواقع التقليدي وهوما يضعف عملية التفاعل بين أبناء المجتمع ويحدث نوعا من الاغتراب، ولولا وجود النبي صلى الله عليه وسلم بين الصحابة لأخذت العملية أبعادا مختلفه.

فالاغتراب إذا هو حالة نفسية اجتماعية تسيطر على الفرد أو الجماعة سيطرة تامة فتجعله غريبا وبعيدا عن بعض نواحي واقعه الاجتماعي.[٤٤] هذا التعريف لمفهوم الاغتراب، قيل به على زمن الفلاسفة من الرواقيين وبسكال وروسو وهيجل وخلافهم. وقد عدّ بسكال الاغتراب الذاتي حالةً ثابتةً ودائمةً في حياة الفرد والمجتمع لارتباطه بالطبيعة الإنسانية والوضع البشري. وكذا فإن روسو يعتبر الاغتراب الذاتي أمرا تاريخيا، فهو ينشأ تحت ظروف تاريخية معينة تتميز بالقهر، من أي نوع سواء كان ذلك قهرا اجتماعيا أو سياسيا، أو اقتصاديا، أو خلافه، ولكن هذا الاغتراب يزول بزوال هذه الظروف.[٤٥] وكذلك فإن هيجل يرى أن الاغتراب عن الذات الفردية لا ينبغي أن يؤدي إلى خضوع الفرد لآخر، أو اعتماده عليه، بل يكون الاغتراب مقبولاً إلى الحد الذي تقتضيه الحياة الاجتماعية فقط، أي أن الذاتي يخضع للموضوعي والفردي للاجتماعي والجزئي للكلي دون أن يفنى فيه.[٤٦] وعلى هذا يكون الاغتراب بوجه عام، يعني العزلة الاجتماعية والنفسية للإنسان في محيطه الاجتماعي.[٤٧] ومفهوم الاغتراب ليس غربيا بحتا، وإنما هو مفهوم قديم لايخلو التاريخ والتراث الإسلامي منه. من ذلك غربة النبي صلى الله عليه وسلّم في وطنه الأول (مكة)، ويلحظ ذلك بتعزية الله تعالى له في مجمل قصص

---

(٤٤) دينكن ميشيل، *معجم علم الاجتماع*، ترجمة إحسان محمد الحسن (بغداد: دار الرشيد، ١٩٨٠)، ٢٠.

(٤٥) محمود رجب، *الاغتراب* (الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٧٨م)، ٧٦.

(٤٦) نبيل رمزي، *علم اجتماع المعرفة: الإيديولوجيا والوعي الاجتماعي* (الإسكندرية: دار الفكر الجامعي، ١٩٩١م)، ٢: ٩٣.

(٤٧) محمد عبدالمولى الدقس، *التغير الاجتماعي بين النظرية والتطبيق* (عمان: دار مجدلاوي، ١٩٨٧م)، ٢٥١.

الأنبياء السابقين، وكيف تعامل كل منهم مع واقعه. وكذلك غربة الصحابة في مجتمعهم (مكة) حيث التعذيب والنبذ والاستهانة وخلافه، حتى هاجر بعضهم إلى الحبشة سعيا وراء تحسين أوضاعهم. إذن فالاغتراب لايخص المجتمع الغربي - حتى لو نُظّر له هناك - إنما أُخذَ من الفكر والتراث الإسلامي مثلما أُخذَ من غيره، وطُوّعَ للمجتمع الغربي ونُظِّرَ له وفقًا لما تقتضيه الظروف في ذلك المجتمع.

وقد تطور هذا المفهوم (الاغتراب) ليشمل مجموعة من الاستخدامات كما ذكرها سيمانSeeman . [٤٨] ويمكن أن تفسّر بعض ردود الأفعال للنبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام وبعض أفراد المجتمع الصحابي في مرحلته الأولى قبل أن يصبح مجتمعا متكاملا، من خلال هذه التقسيمات لمفهوم الاغتراب، ذلك أنها قاعدة إنسانية عامة وليست محصورة في مجتمع معين دون سائر المجتمعات. فمن هذه الاستخدامات:

الأول- انعدام القوة powerlessness الذي يعني شعور الفرد بأنه ليست لديه القدرة على التأثير في المواقف الاجتماعية المحيطة به. ويلاحظ ذلك في محاولات النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته في مرحلة مجتمع مكة وفي الفترة الأولى من مرحلة مجتمع المدينة. بل يمكن أن يلاحظ من خلال نصيحة النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حينما بعثه إلى اليمن. لذا يمكن القول: إن نظام (الأخوّة) الذي جاء به النبي من ربه وطبّقه كفل نوعا من إزالة تلك الغربة.

الثاني- فقدان المعنى meaninglessness الذي يتضمن عجز الفرد عن الوصول إلى قرار أو معرفة ما ينبغي أن يفعله، أو إدراك ما يجب أن يعتقده موجها لسلوكه. ويلاحظ ذلك في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم حينما ذهب إلى الطائف لدعوة أهلها ووجد العنت ولم يؤمن به أحد منهم. وكذلك في مكة مع بني قومه وهو يدعوهم، وكان القرآن ينزل بسرد قصص الأنبياء السابقين عليه ليبين ما كانوا فيه من غربة شديدة أيضا. ويتأكد المعنى بجلاء حينما جاء جبريل للنبي في الطائف وقال له بعدما أُدميت قدماه وكان في

---

(٤٨) أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله السهيلي، *الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام*، ضبطه وعلّق عليه طه عبد الرءوف سعد (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٩٧٨م)، ٢: ٢٤٢.

حالة نفسية متعبة : «لو أمرتني أطبقت عليهم الأخشبين . » وكذلك كان فعل الصحابة في فترات مختلفة من مراحل الدعوة .

الثالث - فقدان المعايير normlessness وهو لجوء الفرد إلى استخدام أساليب غير مألوفة من وجهة نظر المجتمع الذي يعيش فيه ، وغير موافق عليها اجتماعيا لتحقيق أهدافه ، حتى لوكانت الأهداف سامية . وذلك مثل ماحدث مع النبي صلى الله عليه وسلم ومع صحابته في مكة ، خصوصا الذين هاجروا إلى الحبشة أو إلى المدينة في أول الهجرة أوقبلها .

الرابع - العزلة isolation ومعناها انفصال الفرد عن تيار الثقافة السائدة ، وتبني مبادئ أو مفهومات مختلفة ، مما يجعله غير قادر على مسايرة الأوضاع القائمة في المجتمع . ذلك أنه يحمل أفكارا ومبادئ وقيما مغايرة لما هو سائد في المجتمع ، لذا فإنه يُحارَب أو على أقل تقدير يذهب الناس من حوله ؛ وذلك ماكان يعاني منه النبي والصحابة في بداية البعثة والهجرة ، وقد كانت الأخوّة مخرجا مهما لإدماج المهاجرين في المجتمع .

الخامس - غربة الذات self estrangement وهي إدراك الفرد بأنه أصبح مغتربا حتى عن ذاته . وهي حالة طبيعية لمن في حال النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته ، وقد كان القرآن ينزل ويعزيهم ببعض الحوادث ويؤكد عليهم بالصبر والاحتساب لما هم فيه من وضع . لذا نجد أن الاغتراب يتمثل في انقسام الذات إلى فاعل ومفعول . ذاتٌ تناضل و تسعى للتحكم في مصيرها ، تلك هي الذات المسلمة الدافعة التي تسعى لأن تُحكّم شرع الله وتسعى لقيام مجتمع قوي يكون عماده تلك القيم والمبادئ السامية ، وتعمل من أجل الجزاء والثواب الذي أعدّه الله لها في الآخرة . وكيان يتأثر وينفعل بالآخرين من خلال إيجاد النظم أو القوانين التي تحكم المجتمع ، وتفاعل المجتمع السابق مع هذه النظم ومدى تأثيرها على المجتمع .

إن مجتمع يثرب كان يعيش حالة القلق وفقدان المعايير الأخلاقية والتنظيم الذي يؤدي إلى وحدة المجتمع وتآلفه ، وكما ذكرت كتب السيرة ، فإن مجتمع يثرب كان يتألف من حيين ، الأوس والخزرج يجاورهما اليهود ، ولطالما أوقد اليهود الفتنة وقامت الحروب

بينهما.[٤٩] لذا فقد كان من الأولويات للمجتمع الجديد تأسيسه على نظام أخلاقي قوي، يزيل تلك الغربة ويزرع المحبة والفداء. وحتى يندمج المهاجرون في مجتمع يثرب ويتكيفوا مع واقعهم الجديد وتزول عنهم الغربة فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار: «إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم، فقالوا: أموالنا بيننا قطائع، فقال النبي أو غير ذلك؟ قالوا وماذاك يارسول الله؟ قال: هم قوم لايعرفون العمل، فتكلفونهم وتقاسمونهم الثمرة.[٥٠] ويضيف أحمد[٥١] أن من أغراض المؤآخاة أن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة، فآخى النبي بين الأعلى والأدنى ليرتفق الأدنى بالأعلى، ويستعين الأعلى بالأدنى. ولقد كان هذا نوعا آخر من الطرق التي أقدم عليها النبي صلى الله عليه وسلم لإزالة حالة الاغتراب في واقع الحياة الاجتماعية الأولى في المدينة بين المهاجرين وأهل المدينة. وأقدم النبي على خطوة أخرى لإزالة حالة الاغتراب وتأسيس نظام جديد، حينما كتب النبي صلى الله عليه وسلم كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم، وأقرّهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم.[٥٢] وأضاف النبي صلى الله عليه وسلم ونادى كلاً باسمه فقال: «هذا كتابٌ من محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم إنهم أُمة واحدة من دون الناس، المهاجرين من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفيدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو . . . إلخ.»[٥٣] وحتى تزول الغربة ويؤسس مجتمعا إيمانيا قويا لابد من إيضاح وإقرار بعض الأمور وتقعيدها، فكانت تلك الخطوات التي جاءت بعد انتقال المهاجرين إلى يثرب، لأن هناك اختلافا بين المهاجرين وأهل يثرب في كثير من صور الحياة الاجتماعية، لذلك

---

(٤٩) R. Serge Denisoff and Ralph Wahrman, *An Introduction to Sociology* (New York: Macmillan, 1983), 66-67.

(٥٠) ابن حجر، *الفتح*، ١٤ : ٢٦٤، ٣٧٨؛ ابن كثير، *البداية*، ٣ : ٢٥٠.

(٥١) أحمد، *السيرة النبوية*، ٣٠٣.

(٥٢) السهيلي، *الروض الأنف*، ٢ : ٢٤٠.

(٥٣) السهيلي، *الروض الأنف*، ٢ : ٢٤١.

كانت الوثيقتان الأولى والثانية والخطبتان والمؤاخاة ، [٥٤] وذلك ليؤكد ماعليه القبائل من بعض صور التفاعل والتكامل الاجتماعي ، وإدخال المفاهيم الإسلامية الجديدة (الأخوّة) لتكون رابطا قويا يزيل الغربة بين المهاجرين أو بين الأنصار أو بين المهاجرين والأنصار على حد سواء . من هنا نجد أن مفهوم الإخاء ثم الأخوة هو المخرج الذي سعى إليه النبي الكريم صلّى اللّـه عليه وسلم وطبّقه حتى يخرج تلك العصبة من معاناة الاغتراب ويظل المبدأ تشريعا بعد ذلك .

ومن المعاني التي تدور حول الاغتراب في المجتمع الإسلامي بشكل عام ، وخصوصا عند الأقليات المسلمة في المجتمع المعاصر ، عدم وجود القوة عند الفرد المسلم ، أي أن الاغتراب هو شعور ينتاب الفرد ، فيجعله غير قادر على تغيير الوضع الاجتماعي الذي يعيشه ، وغير قادر على أن يتفاعل معه ، وبالتالي ينكفئ الأفراد ذوو الانتماء الواحد أو الهم المشترك ، خصوصا إذا كان ذلك الهم يختص بمسألة دينية ، على بعضهم ليخدم بعضهم بعضا ويحققوا معنى الأخوة فيما بينهم ، ويكونوا فعالين فيما بينهم ، وذلك يمكن أن يكون بسبب سلبيتهم في المجتمع الخارجي ، أو في مجتمعهم الذي يعيشون فيه . فالحدّ الأدنى من ذلك هو العيش في جماعة صغيرة ، تتحقق فيها كل تلك المعاني . فالمسلمون ، أو تلك الجماعة الصغيرة ، لهم أهداف كبيرة وغير محدودة ، منها إعداد مجتمع مختلف عن المجتمع الذي يعيشون فيه ، ولكي ينشئوا ذلك المجتمع ، فلابد من أن يتمحوروا حول أنفسهم تحقيقا لمعنى الأخوة التي جاء بها النبي صلى اللّـه عليه وسلم والعزلة عن المجتمع الخارجي ، أي العزلة الشعورية ؛ وذلك هو أحد معاني الاغتراب وهي العزلة isolation لفصل الفرد عن تيار الثقافة السائدة إذا كانت غير إسلامية ، لتبني مفاهيم ومبادئ ، وتركيزها بتطبيقات عملية في مجتمعهم الصغير ، حتى تكّون جيلاً أو جماعة قوية متماسكة . ليس لأن هذه الجماعة غير قادرة على مسايرة الأوضاع القائمة ، ولكن لتحقيق أهداف محددة ؛ وهنا تكون العزلة والاغتراب عملية مفيدة ، إذ تعمل على إعادة التنشئة الاجتماعية والدينية في المجتمعات المغايرة . لذلك فإن النظام الاجتماعي القديم لا يختفي

---

(٥٤) أكرم ضياء العامري ، *المجتمع المدني في عهد النبوة : خصائصه وتنظيماته الأولى* (المدينة المنورة : إحياء التراث الإسلامي ، ١٩٨٣م) ، ١١٩ .

قبل أن يكتمل نمو كل قوى الإنتاج القائمة فيه، فإذا اكتملت تلك القوى في بنائها ثم بدأت تختلّ، كان ذلك مؤشرًا لظهور قوى وعلاقات اجتماعية جديدة، ولا تظهر هذه قبل أن تنضج الظروف المادية لوجودها في رحم المجتمع القديم.[٥٥] كانت تلك الظروف بارزة في مجتمع يثرب قبل الهجرة، حيث إن التفاعل الاجتماعي ومنتجاته قد اكتملت في الظهور، ثم بعد ذلك ظهر عليها الاختلال فكان مؤشرا بالتغيير، لذلك فإن هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة والبدء في بناء المسجد وتحقيق الإخاء ثم الأخوّة بما تحمل من معاني قوية وجميلة تدعو في مجملها إلى الحب والتراحم والتعاطف والبر والعدل والإحسان والمساواة وخلافها، كانت أساسًا لمجتمع صالح، وسوف يستمر هذا المفهوم للمجتمعات الإسلامية اللاحقة. لذا فإن التلازم قائم بين التآخي والوثيقة،[٥٦] ويحدد معالم كثيرة وتصورا واقعيا لشكل الحياة الاجتماعية القادمة في المجتمع الجديد، وبدأ بعد ذلك توالي الأحداث ونزول الآيات التي تزيد شكل المجتمع توضيحا بعلاقاته المختلفة. فعلاقات الأخوة في الله هي التي سوف تكون الأساس في بناء المجتمع الجديد.

علاقة الأخوّة بالتغير الاجتماعي

يرى ابن خلدون أن الإنسان لابد له من الصراع لكي يعيش ويبني (العمران)، ولكن ليس معنى ذلك أن هذا الإنسان حيوان أو وحش بطبيعته، ولكنه يعيش في ظروف كثيرة ومعقدة، ومتضامنة، ومتضاربة، ومتوافقة في أحيان أخرى. من هذه الظروف ما يجعله مكبلاً بقيود الفردية الضيقة، ومنها ما يجعله اجتماعيا متفتحا، وبعضها يجعله على خلاف ذلك من حب الحياة والاندفاع وراءها أو الجمود باسم العادات والتقاليد. وفي الجانب الآخر قد يكون مضطرا للتكيف مع تغير هذه الظروف من السلب للإيجاب والعكس.

إن القاعدة العظيمة في منطلق تغيير أحداث العالم متضمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ

---

(٥٥) نبيل رمزي، *علم اجتماع المعرفة: ايديولوجيا الإكراه الديني والإرهاب السياسي* (الإسكندرية: دار الفكر الجامعي، ١٩٩١م)، ٣: ١١٩.

(٥٦) أبو محمد عبدالملك بن هشام، *سيرة النبي صلى الله عليه وسلم*، تعليق وضبط ومراجعة محمد محيي الدين عبدالحميد (الرياض: رئاسة البحوث العلمية والإفتاء، د. ت.)، ٢: ١١٨.

اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بأَنفُسهمْ﴾ [٥٧] فقد جعلت تغيير أحداث العالم مرتبطة بما في أنفسَ الناسَ، والناسَ هم الذين يغيرون مابأنفسهم ويتبع ذلك تغيير في السلوك والنظم ومعظم صور الحياة الاجتماعية. [٥٨]

ويذهب شريط [٥٩] إلى أن التفكير الوسيط بأجمعه إسلاميًا كان أو مسيحيا لم ينتبه إلاّ إلى ما يناقض هذا التنبيه، وهو أن اللّـه هو الذي يغير وليس الإنسان. إذن فالتغير بهذا الشكل ليس تغير الإنسان بظروفه وحياته، وإنما هو نوع من الصراع - يصارع الإنسان البيئة من حوله بشقيها الحسي، والمعنوي، ويتغلب عليها «لأن إرادة التغلب هي من مطالب النفس، وخُلُقُ التأله هو من طباع البشر.» [٦٠] لذا فإن الصراع الاجتماعي، صراع طبيعي لابد فيه من توازن، لأنه لا يمكن القضاء عليه، ولكن يمكن التلطيف من حدته، وجعله محتملاً إنسانيا.

وحتى نستطيع تحليل العلاقة بين التغير الاجتماعي و(الأخوة)، لابد من استعراض العوامل والعناصر التي ينطوي عليها هذا التغير. فباستعراضنا لفكرة ابن خلدون عن التطور، تبيّن أن هناك مجموعة من العناصر التي تنطوي عليها تلك الفكرة: [٦١]

العنصر الأول: عنصر الحركة الذي يشعرنا بأننا لا نعيش في عالم جامد وإنما نعيش في عالم روحه الحركة، التي نجدها عامة في الموجودات الكونية، وخاصة الإنسان والمجتمع. فتكون فكرة الأخوة في حدّ ذاتها وحركتها وتفاعلها في المجتمع، تهدف إلى تغيير المجتمع من الوضع الذي كان فيه، ليصبح مجتمعا متماسكا يتحقق التضامن فيه بنظم اجتماعية مبنية على أساس ديني اجتماعي.

---

(٥٧) سورة الرعد، ١١.

(٥٨) جودت سعيد، *الإنسان حين يكون كلاً وحين يكون عدلا* (بيروت: دار الثقافة للجميع، ١٩٧٨م)، ٣٥.

(٥٩) عبدالله شريط، *الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون* (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٤م)، ١٨٣.

(٦٠) ابن خلدون، *المقدمة*، ٤٨٠.

(٦١) شريط، الفكر الأخلاقي، ٢٦١.

العنصر الثاني : هو أن هذه الحركة لا تسير كيفما اتفق، ولا تسير بالخصوص إلى الوراء، وإنما الكائنات عندما تنتقل في حركتها، تنتقل إلى ما هو أرقى. وكذا كان البدء في حركة التغير في المجتمع الإسلامي الأول، حيث بدأت الحركة من الجماعة الأولية، ثم المهاجرين والانصار، وعممت على المجتمع المحلي، مجتمع المدينة المنورة، ثم تلا ذلك المجتمع الإسلامي بأشكاله ومناطقه المختلفة في العالم على مرّ العصور والأزمان.

العنصر الثالث : أن هذه الاستمالة والتطور تتم بأسباب تتكون عنها مسببات. بمعنى أن الأخوة الإسلامية كانت أحد أسباب إنشاء المجتمع الإسلامي المتماسك، والعلاقات الأولية القوية بين الأفراد المسلمين. تلك العلاقات وذلك التفاعل المبني على الوحي هما السبب في إنشاء وتكون تلك الوحدات الأساسية والأولية للمجتمع الإسلامي، ونواة التغير الذي حدث في مجتمع المدينة المنورة.

العنصر الرابع : إنها تتبع نظاما محكما من الترتيب في التطوير، وعدم الوقوف عند نهاية معينة، وهدف هذا النظام أن يرقى دائما، ولا يرضى بالسكون، أو بالأحرى الرجوع إلى الوراء. ويعني ذلك أن نظام الأخوة نظام مستديم، ما بقي الدين الإسلامي لأنه يستمد قوته منه، ولأن الدين الإسلامي كما هو معروف صالح لكل زمان ومكان، فإن نظام الأخوة يسعى لتنظيم المجتمع وفق المعايير المحددة المرفقة به، ويسعى لتغيير دائم في المجتمع الإسلامي نفسه وفي المجتمعات الأخرى في كل الأوقات، وقد فهم هذا النظام في فترات من الزمن على أنه تعنصر أو تطرف أو إرهاب أو خلافه، ولكن بفهم هذا النظام اجتماعيا يسهل التعامل معه وإبعاده عن تلك البؤر. (٦٢)

لقد انطلقت التصورات الحديثة لتفسير التغير الاجتماعي منذ سروكن Sorokin في نظريته إلى التقلبات الاجتماعية والفكرية، وابتداع الدائرية. وكذلك توينبي Toynbee وشبنجلر Spangler وماركس Marx في نظرية الصراع، بتحليله للتكوينات الاجتماعية المتمخضة عن أساليب وعلاقات الإنتاج والتي تفضي إلى صراع بين الطبقات في المجتمع. وكذلك سبنسر Spencer في نظريته للتغير من خلال أفكاره في الداروينية

(٦٢) شريط، الفكر الأخلاقي، ٤١٨.

الاجتماعية.[٦٣] وقد أجمع دارسو التغير الاجتماعي على أن هناك عوامل خارجية، وأخرى داخلية، تؤدي إلى تغير المجتمع. فالدراسات التي أجراها المؤرخون حول انهيار، المدن وبنائها، واضمحلال التجارة، وضعف البرجوازية، في المجتمعات السابقة، تشير إلى عامل مهم إذا وجد، وهو العامل الديني. وفي الجانب الآخر نجد في الدراسات السوسيولوجية التي اهتمت بدراسة تاريخ الجزيرة العربية وثقافتها، والثقافة العربية بشكل عام، ما يشير إلى أهمية هذا العامل منذ إشارة ابن خلدون إلى تحول المجتمع، حتى الدراسات الحديثة حول هذه المنطقة من العالم وكذلك في المجتمعات الإسلامية.

إن الكثير من المفاهيم مثل التقدم، والتغير، والتطور، وغيرها من المفاهيم التي سادت الفترة التي سبقت الثورة الفرنسية، وكذلك أفكار الإصلاح الديني وتأثيرات عصر التنوير، كان لها دور في قدرة الإنسان الأوروبي على تغيير ظروفه المادية والروحية،[٦٤] باستيعاب هذه المفاهيم ومحاولة التفريق بينها وضبط حركتها، وكذا الاستفادة من مضامينها. وإن التغير الاجتماعي له عوامل داخلية وخارجية لإحداثه. لكن هذه العوامل لا تؤدي في حد ذاتها إلى التغير، لذا فقد تتوافر هذه العوامل دون أن يحدث أي نوع من التغير. والسبب في ذلك أن المجتمع يحوي مجموعة من عوامل أخرى تؤدي إلى التوازن، فإذا كانت العوامل المؤدية إلى التغير أقوى من عوامل التوازن كانت الغلبة إلى التغير وأصبح ذلك واضحا جليا في أشكال مختلفة من التغير، وإذا كانت العوامل المؤدية إلى التوازن أقوى من العوامل المؤدية إلى التغير، حتى لو توافرت عوامل التغير، كان المجتمع متوازنا ومتكيفا كليا مع ثقافته غير مستعد للتغير. ولأننا بصدد التعرّف على علاقة الأخوة بالتغير الاجتماعي للمجتمع الإسلامي، في المجتمع الإسلامي الأول، وإمكان حدوثه في المجتمع الإسلامي بشكل عام، فسوف نستعرض بعضا من الشروط التي وضعها بارسونز في معرض حديثه عن الاستعدادات التي يجب توافرها في المجتمع حتى يكون متهيئا للتغير، وذلك لمحاولة إثبات علاقة الأخوّة بالتغير الاجتماعي الذي حدث في مجتمع يثرب

---

(٦٣) السيد الحسيني، *نحو نظرية اجتماعية نقدية* (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٥م)، ٥٣.

(٦٤) حيدر إبراهيم علي، *التغير الاجتماعي والتنمية: مدخل نظري* (القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٨٢م)، ١٨.

إبّان الهجرة، والدافعية القوية نحو التغير الذي أحدثه الإسلام في ذلك المجتمع، إذ كانت فكرة الأخوّة منهجا وعاملا مهما في إحداث ذلك التغير، ويمكن أن يحدث في المجتمعات اللاحقة إذا أُخذت بتلك الروح. ومن هذه الشروط التي وضع بارسونز:

أولا: يجب أن تكون التوترات داخل المجتمع من القوة بحيث تولّد دافعية التغير وتحافظ عليها. وباستعراض المجتمع المدني في العهد النبوّي، نجد أن مجتمع يثرب قبل الهجرة كان يعيش في مجموعة من التوترات، منها ما هو مختص بالحروب والتنا قضات بين القبائل والفوارق الطبقية، وكذا وجود الطبقات المستغلّة من اليهود، والاختلافات الدينية، وهو ما جعل هناك حاجة للتغير. وكما تذكر كتب السيّر، فإن عبداللّه بن سلول يكاد أن يتوج قبل مجيء النبي صلى اللّه عليه وسلّم، وهذا يظهر أن المجتمع كان في حاجة إلى التغير.

ثانيا: يجب أن تتطور مجموعة من الوسائل لمقاومة أولئك الذين من مصلحتهم المحافظة على الوضع القائم أو عزلتها، وإلا فسوف تكون هناك مخاطرة بأن تخلق التوترات، في مواجهة قوى الضبط، ضربا من السلبية أو أشكالا من العداء غير المباشر. وبذلك كانت الأخوة في حدّ ذاتها بمنهجها وتطبيقاتها والتبعات النفسية والاجتماعية والدينية والسياسية التي لحقت بها، أهم الوسائل التي حطّمت مصالح المستفيدين من اليهود والمنافقين في ذلك المجتمع، ثم تطوّرت لتخلق مجتمعا جديدا متوازنا.

ثالثاً: من الضروري أن يظهر نموذج للمجتمع على درجة من الوضوح، والواقعية، ويمكن تحقيقه. فبدون هذا النموذج فإن قوى التغير تحدث استنزافا سريعا دون إحداث أي فعل مؤثر. إن النموذج المثالي كامل الوضوح، كان في الدين الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، وبما يحمل هذا الدين من قوة في العقيدة تنعكس على السلوك والممارسات، سواء كان ذلك بين الصحابة أنفسهم أو علاقتهم بالمجتمع الخارجي. كان ذلك واضحا في مفهوم (الأخوة) وما تبع ذلك من ممارسات ومفاهيم أخرى تابعة له، وتعتمد عليه مثل التكافل والتواد والتعاطف في المجتمع المدني.

رابعا: يجب أن تظهر بسرعة مجموعة من أشكال الجزاء، بحيث تثاب أشكال السلوك الجديد في ضوء معايير جديدة، تحاول تحطيم المعايير القديمة كان لابد من أن يكون

المجتمع الإسلامي الأول يُظهرُ بعض الجزاءات، وتظهر بعض المعايير لتثبت لمجتمع يثرب صحة تلك الأفكار والمعايير والمفاهيم والقيم وأهميتها وجدواها. لذا كان مفهوم الأخوّة أحدها، إذ تمثلت في قول النبي صلى الله عليه وسلم «سلمان منّا آل البيت،» والمعروف أن سلمان كان فارسيا ولم يكن عربيا. وكذلك كانت معاملة النبي لليهود والمنافقين في مواقف كثيرة قبل أن يقوى المجتمع الإسلامي وبعده، وغير ذلك من الممارسات ممثلة في الجزاءات التي تثيب على السلوك الحسن المنسجم مع القيم والمعايير الجديدة، والعقاب أو الاستبعاد لمن لم يكن منسجما معها. هذه الإجراءات والتطبيقات، تنبع من أن الأخوة لها مدخلات، ومخرجات، وكل ما يخالف ذلك تنطبق عليه الجزاءات وكل ما يوافقه ينطبق عليه الثواب في الدنيا بالإضافة إلى ما هو موعود به في الآخرة. و قد أضاف بارسونز ظرفا جديدا، إذ يجب أن تصل قوى التغير على أعلى درجة ممكنة بحيث تصل إلى مستوى الرموز والقيم.(٦٥)

تعتبر الأخوة جزءاً مهما من الدين الإسلامي الشامل، تأخذ جانبا في الاعتقاد وآخر في الحياة الاجتماعية. وقد جاء ذلك في مواقف وأقوال ومناسبات مختلفة لتؤكد وتثبت أن مفهوم (الأخوّة) قيمة دينية واجتماعية. من ذلك: «المسلم أخو المسلم. . . ، من غشنا فليس منا. . . ، من حفر حفرة لأخيه. . . ، لايؤمن أحدكم. . .» وغير هذا من الأقوال والممارسات في المجتمع الأسلامي الأول وما بعده، وهو ما يدلل على أن الأخوة قيمة دينية واجتماعية مهمة، وقد تكون محور الحياة الاجتماعية في المجتمع الإسلامي، وبذلك تصبح رمزا للوحدة والتوحّد والتكاتف والتعاطف والحب والتراحم، وبهذا الرمز تستمر الحياة في صدق وأمان. إذن فهي الرمز الذي ينظر إليه، والذي التف حوله المسلمون في أوقات مختلفة وفي أماكن متباعدة وكذا فـ (الأخوة) نوع من الضبط الذي يكون محورا لحركة هذه الجماعة والمجتمع.

علاقة الأخوة بالسلوك الجمعي

حينما يكون الحديث عن السلوك الجمعي والأخوة، فإن الذهن لايخلو من مشاركة

(٦٥) روشيه، *علم الاجتماع الأمريكي*، ١١٩.

مفاهيم أخرى مثل التماسك، أو التكامل داخل الجماعة أو المجتمع المعين، وهو ما يوحي به مضمون مفهوم الأخوة، لأن مفهومي التماسك والتكامل يشيران إلى أن هناك نوعا من الترابط القوي بين جزئيات الجماعة أو المجتمع. ويمكن أن يحكم على هذه الجماعة أو المجتمع بأنها متماسكة، أو متكاملة، من خلال تراث ديناميات الجماعة، ودرجة الجذب التي تمارسها على أعضائها، وكذا وفقا للأسلوب والمنهج الذي تعتمد عليه في تحديد درجة التماسك أو التكامل داخل الجماعة، كما تحدّث دوركايم عن التضامن الاجتماعي في معرض حديثه عن التماسك داخل المجتمع. ومفهوم الأخوة يحمل تلك المفاهيم السابقة، وله منهج معين في جذب الأعضاء إليه، إذ إنه يعتمد على الإيمان بالله والالتزام بالإسلام حتى يتحقق، ويكون قادرا على معالجة معظم ما يمكن أن يتعرض له من السلبيات. لذا نجد أن من يلتزم بهذا المفهوم (الأخوة) يُعد له جزاء في الآخرة، وهناك الكثير من الآيات والأحاديث التي تصف الجزاء الذي أُعَدّ للمتحابين المتآخين. وهذا يجعل هناك قوة في المفهوم فكرةً وتطبيقا. والسلوك الجمعي هو نتيجة مباشرة لمواقف عامة، تتميز بالتفاعل الواضح بين الأفراد، وهذه المواقف لا يمكن أن تحدث بما تتميز به إلا أن تكون هناك رابطة قوية من نوع خاص، وذلك هو ما تهدف إليه الأخوة، ومن خلالها تظهر الدوافع والنزعات، وتنتشر وتنتظم وتتحرك في اتجاه معين.

وإذا حاولنا معرفة العلاقة بين الأخوة والسلوك الجمعي، نجد أن بعض النظريات الاجتماعية [٦٦] تنظر إلى السلوك الجمعي بوصفه يعبّر عن تقارب الأفراد في الميول، والاستعدادات، والأفكار، والأهداف والآمال. إذن فالسلوك الجمعي يعرّف بأنه السلوك الناتج عن أي نوع من التماثل بين الكائنات الإنسانية، حينما يتحرك كل فرد، ويفكر، ويسلك تحت تأثير نزوع معين، أو حالة عقلية، يشارك فيها مجموعة أفراد بغض النظر عن الظروف العامة، وينتج عن ذلك السلوك الجمعي. [٦٧] كما ينظر للأخوة بوصفها

---

(٦٦) محمد عارف، *المجتمع بنظرة وظيفية: أشكالها وإمكاناتها التصورية والمنهجية في دراسة المجتمع* (القاهرة: مكتبة الأنجلو، ١٩٨٢م)، ٥٩.

(٦٧) محمد عاطف غيث، *قاموس علم الاجتماع* (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩م)، ٩٦.

نوعا من التقريب والتأكيد على تقارب الأفراد في ميولهم وأهدافهم، بمايحويه هذا المفهوم من الدافعية نحو تماسك المجتمع ونبذ الصراع المؤدي إلى التفرقة، وإلى بناء المجتمع القوي، والتأكيد على الأساس العقدي له. وحتى يتكامل مفهوم الأخوة ويشكل سلوكا يقاس عليه معظم أفعال الملتزم بذلك، فإن هناك مجموعة من العوامل والمحددات التي يجب توافرها حتى يصبح ذلك سلوكا جمعيا. يذكر الفيصل[٦٨] هذه المحددات على النحو التالي: الأول: التيسير (اليسر) البنائي structural conduciveness؛ الثاني: التوتر البنائي structural stain؛ الثالث: نمو معتقد عام (معمم) وانتشاره growth and spread of generalized belief؛ الرابع: العوامل المسرّعة precipitating factors؛ الخامس: التعبئة والتنظيم mobilization of motivation into organized action؛ السادس: الضبط الاجتماعي social control.

يتمثل السلوك الجمعي في الأخوة بتوافر تلك المحددات، بالإضافة إلى أن هناك أيضا مجموعة من الخصائص لهذا السلوك الذي يتمخض عن الاعتقاد الديني، ثم الالتزام بهذه الأخوة. هذه الخواص كما ذكر الفيصل[٦٩] تكوّن سلوكا خارجيا عن الشرعية الاجتماعية، حيث لم يعتد المجتمع في مكة قبل الفتح، ولا في يثرب قبل الهجرة أن يتبنى مثل هذا السلوك من قبل، إذ تروي كتب السيرة والتاريخ كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الطبقات المختلفة في المجتمع، في نوع من التوحد في السلوك وفي الاعتقاد، ويعكس هذا السلوك مايحمله الأفراد من فكر جديد. بل إن الشرعية الاجتماعية في تلك المجتمعات تكرّس نوعا معينا من الفكر والسلوك الذي قد لايكون بنائيا، دافعا، أو خلاّقا يعمل على توحّد المجتمع وفعاليته. لذا فقد ركّز النبي صلى اللّه عليه وسلم على ذلك في معظم الأحاديث التي كان محورها شئون المجتمع والمعاملات، والتي تكون قائمة في أصلها على الاعتقاد الجازم بأن من يفعل ذلك يجازى بما عند الله من الثواب في الآخرة. بالإضافة إلى تنظيم المجتمع في الدنيا، مثل «لا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا

---

(٦٨) عبدالله عبدالرحمن الفيصل، «مقومات الحركات القيمية كما بينها سملزر مع إيضاحات لها من حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب،» *مجلة جامعة الملك سعود*، ٥، *الآداب* ٢، (١٩٩٣م)، ٧٣٨.

(٦٩) الفيصل، «حركة الشيخ،» ٧٤٠.

تحاسدوا . . . . . » وكذا «حب لأخيك ما تحب لنفسك، »[٧٠] وكذلك كثير من الآيات والأحاديث التي تحث على الالتزام بالأخوة في محتواها الفكري وتطبيقاتها العملية المتشكلة منها مثل السلوك الجمعي. يضاف إلى ذلك من الخصائص، الحاجة إلى وجود توتر في البيئة يستلزم هذا النوع من السلوك. وفي هذا الجانب نجد أن البيئة الاجتماعية في يثرب قبل الهجرة، وفي المراحل الأولى من الهجرة، كان هناك توتر في الحياة الاجتماعية والدينية، وهو ما استلزم ظهور مثل هذا المفهوم، واستمر مشكلاً قاعدة تنطلق منها المجتمعات والأفراد، ومفهوما يتاح المجال للتنظير فيه، سواء كان ذلك في المجتمعات الإسلامية أو غير الإسلامية، لأن مفهوم الأخوّة في جانبه الاجتماعي ليس حكرا على المجتمعات الإسلامية، بل تشترك في ذلك المجتمعات الإنسانية. لذا يمكننا القول: إن نظريات الجماعات والجماعات الصغيرة وديناميا تها ودراسة المجتمعات الصغيرة والمحلية والأقليات، قد انطلقت من هذا المفهوم.

وأخيرا، ضرورة وجود معتقد عام يستند عليه المشاركون لتفسير التوتر، وتخفيف حدته، كاعتقادهم بوجود مؤامرة عليهم أو وصمهم لمجتمع ما، بأنه مغاير لهم، لذلك فإن الترتيبات الاجتماعية تتطلب تعبئة لمجهودات المشاركين.[٧١] إن الأخوة تكون سلوكا جميعا، وتكون شكلا من متطلبات الوجود الاجتماعي لمجموعة معينة من الناس الذين يؤمنون بمفهوم الأخوّة، اعتقادا وتطبيقا، لأن ذلك الإيمان والالتزام علاج لأية مشكلة، أو مصاعب تواجه تلك الجماعة أو المجتمع المنتمين إليه. ويكون ذلك في الامتثال لمتطلبات النظام الاجتماعي (الأخوة) وتقبل عمل النظم الاجتماعية الأخرى المساندة له أو المنطلقة منه، مع الاعتراف بأن عمل هذه النظم هو السبيل الوحيد للخروج من الصعوبات، وهو حل للأزمات، بالإضافة إلى كونه جزءا من هوية المجتمع، كما أنه جزء من التكليف الديني الملزم للمسلم. لذلك فإن التوصل إلى النظام والعقلانية في الشؤون الاجتماعية لا يتم إلا من خلال الكشف عن آليات (ميكانيزمات) النظام الاجتماعي،

---

(٧٠) الألباني، *صحيح الجامع*، ١٢٦٥.

(٧١) الفيصل، «حركة الشيخ، » ٧٤٠.

(٧٢) محمد أحمد بيومي، *علم اجتماع القيم* (القاهرة: دار المعرفة الجامعية، ١٩٧٨م)، ١٣.

(٧٢) وذلك ماكان البحث يسعى له من خلال إبراز بعض الجوانب الاجتماعية المتعلقة بمفهوم الأخوّة وعلاقته بالنظم الاجتماعية الأخرى، مع محاولة الكشف عن دينامياته وفاعليته في المجتمع الإسلامي.

الخاتمة

بدأ مفهوم الأخوة، واستمر في ذهن الكثير من المسلمين، على أساس أنه مفهوم ديني يوجب الالتزام بعد الاعتقاد. ولكن لم ينظر إليه من جانبه الاجتماعي وينظّر فيه، بل إن هذا المفهوم انتقل خارج الحدود، حيث دُرسَ ونظّر له من منطلقات فكرية مختلفة. فمنهم من نظر إليه من زاوية الجماعة والجماعَات الصغيرة وديناميّاتها وتفاعلها، وكذا النظام الاجتماعي، وبعضهم الآخر من زاوية السلوك الاجتماعي والجمعي ومقوماته وخصائصه وغير ذلك من المفاهيم الاجتماعية الأخرى المتعلقة بذلك. وفريق ثالث رأى أنه تشابه في الأفكار، وتحليل لحركة المجتمع، إذ إن المجتمع الإنساني يتشابه في الكثير من المقومات والحركة. ولأن هذا الجانب من المجتمعات الأخرى لم يغفل التراث الإسلامي، بل تعرّض له بشكل أو بآخر، نقلاً أو استعارة نظرا لأهمية المجتمعات الإسلامية لكونها مهد الحضارات، بالإضافة إلى الحضارة الإسلامية التي أنتجت فكر كثير من المفكرين الاجتماعيين. لذا فقد تكون تلك النظريات امتدادا لما طُرِقَ من قبل في المجتمع الإسلامي، من أمثال أفكار ابن خلدون. وحتى نستوضح مفهوم الأَخوة نستعرض بعض ما قيل عنها وأغراضها واستخداماتها في المجتمع الإسلامي. فقد قال بعض الحكماء: ليس للإنسان تنعّم إلا بمودة الإخوان، وقال آخر الازدياد من الإخوان زيادة في الآجال، وتوفير لحسن الحال. وقيل: عاشر الناس معاشرة، إن عشتم صفوا إليكم، وإن متم بكوا عليكم. وقال علي بن أبي طالب رضى اللّـه عنه لابنه الحسن: ابذل لصديقك كل مودة، ولا تطمئن إليه كل الطمأنينة، وأعطه كل المواساة ولا تفش إليه كل الأسرار. وقال العباس بن جرير: المودة تعطف القلوب، وائتلاف الأرواح، وأنس النفوس ووحشة الأشخاص عند تنائي اللقاء وظهور السرور بكثرة، والتزاور، وعلى حسب مشاكلة الجواهر يكون الاتفاق في الخصال. وقال بعضهم: من لم يؤاخ من الإخوان إلا من لا عيب فيه، قلّ صديقه، ومن

لم يرض من صديقه إلا بإيثاره إياه على نفسه دام سخطه، ومن عاتب على غير ذنب كثر عدوه. وكان يقال: أعجز الناس من فرط في طلب الإخوان. (٧٣)

من ذلك يستنتج أن هذا المفهوم (الأخوة) يؤخذ كلاً، وبشكل متوازن ومتكامل حتى يكون روحا للمجتمع، فيؤكد عليه في الأدبيات بكل أشكالها وعلى اختلاف المستويات الثقافية في المجتمع. وكما يتصور بارسونز النسق الاجتماعي من أنه يولد داخل عمليات لتحقيق التكامل والتوازن، ويعمل على طرد مستمر لمصادر التوتر أو التغير أو الصراع في المجتمع، فإن المسلمين يرون ذلك في مفهوم الأخوة والالتزام بها على أساس أنها نظام اجتماعي ديني أساسه العقيدة الإسلامية، وروحه الالتزام بالدين. لأن هذا المفهوم (الأخوة) ليس إفراز المجتمع وحاجته إليه، ولكنه نظام تشريعي جاء من عند الله عن طريق نبيه.

بالإضافة إلى أن هناك تكاملاً بين التوجيهات الدافعية والتوجيهات القيمية في هذا المفهوم، وتكاملاً بالاعتماد المتبادل بين النظم الفرعية للنسق الاجتماعي، وعملية التشكّل النظامي المستمر لهذه النظم داخل المجتمع الإسلامي. فنظام الأخوة يدعو إلى التوازن والعمليات التابعة لذلك، من مستلزمات وظيفية أو ميكانيزمات الضبط الاجتماعي داخل مفهوم الأخوة. (٧٤) وفي جانب آخر، فإن التآخي (الأخوة) قد تؤخذ بأنها رمز لهذا التجمّع (المجتمع الجديد) وله مجموعة من الشروط والالتزامات، لذا فإن التفاعل بين الصحابة في ذلك المجتمع كان مبنيا على فهمه لهذا الرمز (الأخوة) لأن المسلمين يتصرفون تجاه الأشياء والموضوعات المتعلقة بهذا المفهوم على أساس ما تحمله هذه الأشياء من معان ودلالات، فالأشياء والموضوعات ليست أهميتها في ذاتها، أو كما نراها، بل بما تحمله فيً طياتها من قيمة ومعنى، بالنسبة للفرد والمجتمع الذي يتعامل معها. لذا فإن مفهوم الأخوة له دلالات ووظائف متعددة في المجتمع الإسلامي الأول. واستمر هذا المفهوم بهذا الشكل

---

(٧٣) عمر بن بحر الجاحظ، *المحاسن والأضداد*، تحقيق فوزي عطوي (بيروت: دار الصعب، ١٩٦٩م)، ٥٣.

(٧٤) أحمد زايد، *علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية* (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨١م)، ٩١١.

عبر الأزمان لارتباطه بالدين في أصله، لذا فإن قوته وضعفه وفاعليته وعدمها تعتمد على مدى ارتباط المجتمع بالدين. ويلاحظ في بعض المجتمعات الإسلامية عدم جدوى هذا المفهوم في بعض الأحيان، حيث تنتشر العنصرية والحروب وغيرها من مظاهر التشتت. وتظهر في مجتمعات أخرى الكثير من مظاهر الأخوة مثل الصدق والأمانة والمحبة وسواها. وكذلك يظهر بشكل ذي دلالة في بعض المجتمعات الإسلامية والتجمعات الإسلامية والعربية (الجماعات والتيارات) بشكل واضح داخل المجتمعات الإسلامية أو غيرها (الأقليات الإسلامية)، لأنها تبرز الطريقة الفعلية التي تؤثر في الناس والتي يؤثر فيها بعضهم في بعض، من خلال استخدامهم للأخوة والمتمثلة في تصرفاتهم أو ردود فعلهم أو اتجاهاتهم أو ما ينطوي عليه هذا المفهوم من دلالات بين المتآخين. وأخيرا، فإن اختلال الالتزام بروح هذه المفاهيم المطروحة دينيا واجتماعيا، يكون ذلك عاكسا لكثير من الاختلال في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والنفسية وخلافها، ومن خلال ذلك تظهر البنى العرقية والطبقية وترتبط حركة المجتمع في ازدهاره أو تقدمه أو تخلّفه حسب التفاعل بين الفكرة ومعتنقيها، وهذا ماسطّرته كتب التاريخ وعالجه علماء الاجتماع.

Sociology of Brotherhood

Suleiman A. Al-Akeel

Assistant Professor, Department of Social Studies,
College of Arts, King Saud University,
Riyadh, Saudi Arabia

Abstract. Brotherhood is one of the importants concepts of Islam. It was founded by the Prophet Mohammed (Peace of Allah be upon him), when he migrated from Makkah to Madinah, as the first step of developing a new community (group) of Muslims. However, this concept has been changed, and interpreted differently as idea and practice.

Social scientists throughout the world developed many concepts relating to the term 'brotherhood', such as community, small group, social organization, and so on. In this study, it is tried to discover and analyze the relationships between the concept of 'Brotherhood' and other concepts such as social organization, the function of the organization, social system, social change alienation, and collective behavior, from Islamic and sociological points of view. Moreover, the influence of this concept on Islamic society has been discussed .